

العين التي ترى كل شيء

رواية بوليسية خيالية درامية

خريطة الرواية

هيكل العمل

مقدمة قبل أن ينكسر الزجاج

المشهد الافتتاحي من عين الخصم

الجزء الأول: الهبة الفصول ١ – ٣

الانفجار، اليقظة، أول جريمة، بيت الرماد

الجزء الثاني: الوسوسة الفصول ٤ – ١١

قضيتان مستقلتان، الدواء المغشوش، العمل مع الأمن، وسوسة الشيطان تشتد

الجزء الثالث: الحبّ والخديعة الفصول ١٢ – ١٨

ليلى تقترب، الحب والشك، الحليف المجهول، سقوط القناع

الجزء الرابع: الكشف الفصول ١٩ – ٢٤

المواجهة، كشف الجاسوسة، الابتعاد، ثمن الاختيار

خاتمة العين التي أغلقت، والأذن التي فتحت

المحاكمة، والقبر، والغرفة المغلقة، وباب الجزء الثاني

سردٌ بالفصحى وحوارٌ بالعامية المصرية — مزيجٌ من العقاد ودوستويفسكي وتولستوي وأحمد خالد توفيق وأجاثا كريستي، بعينٍ سينمائية على طريقة أحمد مراد.

مقدمة

قبل أن ينكسر الزجاج

◉ ورشة مسبوكات مهجورة — شبرا الخيمة

الثلاثاء ٣ نوفمبر · ٠٠:٤٠ بعد منتصف الليل

ورشة قديمة لصبّ النحاس، هجرها أصحابها بعد أن ابتلعتها الديون، فبقيت فيها بقايا المهنة كما تبقى في الجسد بقايا حُمّى: بوتقات مثقوبة معلّقة بسلاسل صدئة، وقوالب رملية متشققة على الأرض، وجدران سوّدها دخان ثلاثين سنة حتى صارت تلمع في العتمة كجلد حيوانٍ مبلل. وفي الهواء رائحة فحم قديم وزيت محروق

وصدأ، ومن ثقوب السقف تتساقط قطرات المطر في وعاء معدني، قطرةً بعد قطرة، بإيقاع ساعة لا تعرف الاستعجال.

المطر يطرق سقف الصفيح كأصابع تعدّ نقودًا.

في الظلام الكثيف يشتعل عود ثقاب. لهبٌ صغير يضيء ثلاثة أشياء فقط: يدًا يسرى، وصمامًا نحاسيًا صغيرًا على طاولة من الحديد، وسيجارة يُلفّ تبغها التركي بعناية من اعتاد ألّا يتعجل.

اليد ثابتة. أظافرها قصيرة نظيفة، وعلى ظهرها ندبة قديمة نحيط أبيض. لا يظهر من صاحبها شيء آخر؛ كأن الظلام قرّر أن يحفظ سرّه.

يدور الصمام بين الأصابع، ويلمع النحاس لمعة خافتة. خطوات لولبه أضيق بجزء من عشرة من المليمتر. جزءٌ واحد.

على الطاولة، بجوار الصمام، هاتفٌ مضيء. وصوت رجل يخرج منه رخيمًا هادئًا، بثقة من لم يعرف الخسارة:

— ماحدش هياخد باله من الفرق ده؟

— ماحدش بياخد باله من حاجة قبل ما تتفجر.

— والفني اللي هيفحص العيّنة؟

— مهندس صغير اسمه يوسف سالم. بيكتب في آخر كل تقرير جملة واحدة.

— إيه هي؟

— «مطابقة للمواصفات».

يسود الصمت لحظة، ثم يضحك الصوت ضحكة خافتة بلا مرح:

— يبقى نساعده يكتبها للمرة الأخيرة.

ينطفئ عود الثقاب. ويبقى في الظلام وميضُ جمرة السيجارة، وبقية الحكاية.

الجزء الأول

الهبة

حادثة تفتح بابًا في الرأس، وعينٌ لا تكفّ عن القراءة

الفصل الأول

الليلة التي انكسر فيها الزجاج

ليست الكوارث هي التي تغيّر الإنسان، وإنما ما يبقى في روحه بعدها؛ فالنار تأكل الخشب وتترك الرماد، أما الرجل فقد تأكله النار ويبقى منه شيء آخر لا يعرفه هو نفسه. وهذا ما حدث ليوسف سالم في ليلة ممطرة من ليالي نوفمبر، في معمل صغير للتحاليل في حيّ العباسية، لم يكن يعلم بوجوده أحد إلا من كانت له حاجة إلى ورقة ختمها ختمٌ رسمي.

كان يوسف في الرابعة والثلاثين، مهندس مواد لم تسعفه الدنيا بأكثر من وظيفة تُشبه الصمت: يفحص عيّنات المعادن والزجاج والبلاستيك، ويكتب في آخر كل تقرير جملة واحدة لا تتغير: «مطابقة للمواصفات». وكان يرى في حياته كلها تقريرًا طويلًا من هذا النوع، لا يُخالف فيه أحدٌ أحدًا، ولا يسأل فيه أحدٌ عن شيء.

وكان لهذه الجملة تاريخ لا يعرفه أحد في المعمل. فقد كان يوسف في الثانية والعشرين، في سنته الأخيرة بكلية الهندسة، حين مرضت أمه. كانت السيدة عفاف، موظفة في مدرسة ابتدائية بشبرا، قد ربّته وحدها بعد أن مات أبوه، مهندس السكك الحديدية، بنوبة قلب في

عربة قطار وهو دون الخامسة والأربعين؛ وكان يوسف حينها في الخامسة عشرة. عاشا بعد ذلك في شقتهما الصغيرة، رجلٌ صغير وامرأة تتجاهل تعبها، يتقاسمان خبزًا بالجبن وصمتًا طويلًا يملؤه الحب.

وفي شتاء ذلك العام اشتكت من التهاب في الجيوب الأنفية، فاشترت من صيدلية قريبة علبة مضاد حيوي رخيصة، قالت لها بائعة الدواء إنها «بتعمل نفس الشغل». لكنّ الأقراص كان ثلثها مادة فعالة وثلثاها شيئًا آخر لم يعرف أحد اسمه، ولم تمضِ ثلاثة أسابيع حتى توقفت كليتاها. وعاشت بعد ذلك عشر سنوات على جهاز الغسيل ثلاث مرات في الأسبوع، تصحو

قبل الفجر لتذهب إلى المستشفى وتعود ببسمة تُخبّئ بها كل شيء، وماتت في ربيع قبل عامين وهي تعتذر له لأنها كلّفته عمره.

ولم يغفر يوسف لنفسه أنه كان يتعلم المعادلات في الجامعة بينما كانت أقراصٌ تقتل أمه في مطبخها. فلما تخرّج لم يطلب وظيفة في شركة كبرى ولا مكتبًا استشاريًّا، بل معملًا صغيرًا للفحص، لأنه أراد أن يكون الرجل الذي يقول بعد الفحص هل الشيء كما يُقال عنه أم لا. وكتب تحت كل تقرير جملة واحدة لا تتغير: «مطابقة للمواصفات»، لا لأنها أسهل الجمل، بل لأنه لم يكتبها مرة واحدة إلا وهي حقيقة؛ فقد عرف،

قبل أي إنسان في ذلك المعمل، ما تفعله الكلمة التي تُكتب بلا حقيقة في مطبخ امرأة لا يعرفها أحد.

◉ معمل تحاليل «الأمانة» — العباسية

الخميس ٥ نوفمبر · ١١:٤٠ مساءً

كان المعمل غرفتين متجاورتين في طابق أرضي بعمارة قديمة: غرفة استقبال بمقعدين من الجلد المشقوق ومكتب صغير تعلوه مروحة سقف بطيئة، وغرفة فحص خلفها باب زجاجي باهت. على الجدران رفوف من الصلب تحمل زجاجات كواشف بملصقات مكتوبة باليد، وعلى الطاولات الطويلة مجاهر وموازين دقيقة وأجهزة مغطاة بأغطية بلاستيكية كأنها نائمة. ورائحة

الأسيتون والمعدن الدافئ تملأ الهواء، وفي الخارج يضرب المطر النافذة الحديدية بإيقاع متقطع، ومصباح فلورسنت في آخر الغرفة يومض كجفنٍ يحاول ألّا ينام.

في تلك الليلة بقي وحده بعد انصراف الزملاء. كان أمامه وعاء ضغط صغير من الزجاج المعالَج، وصل صباحًا من جهة لا تُذكر في الأوراق، ومعه طلب غريب: «الفحص عاجل، والنتيجة لا تُسلَّم إلا لصاحبها». وضع العيّنة في الجهاز، وضغط الزر، وأنصت إلى الطنين المألوف يعلو شيئًا فشيئًا... ثم أحسّ أن الطنين لم يعد يشبه نفسه.

لم يتذكر بعد ذلك إلا ضوءًا أبيض ابتلع كل شيء، وصوت زجاج لا ينكسر مرة واحدة، بل ينكسر آلاف المرات في لحظة واحدة، كأن الدنيا كلها نافذةٌ ضُربت بحجر.

◉ مستشفى القصر العيني — العناية الوسطى
الأحد ٨ نوفمبر · ٠٩:١٠ صباحًا

كانت الغرفة طويلة وضيقة، ستة أسرّة حديدية تقابل ستة أخرى، تفصل بينها ستائر خضراء مهترئة معلّقة على قضبان معدنية. من شقوق الشيش في الأعلى تدخل أشعة الصباح مائلة، تقطّع الهواء إلى شرائح غبار ذهبية، وفي الممر تصطك عجلات عربة الدواء بإيقاع

منتظم، وتتصاعد من نهايته أصوات أكواب الشاي وبكاء طفل بعيد وصفير جهاز يطلب من يهتم به. والأرض مغسولة بالكلور حتى مال البلاط الأبيض إلى الأصفر، ورائحة الدواء والعرق والخبز الطازج المتسلل من أكياس الزوار تتعانق في الهواء كجيران اضطروا إلى السكن معًا.

استيقظ على سقف أبيض، وعلى رائحة المطهّرات التي تعرفها كل مستشفيات الدنيا. كانت عيناه مغطاتين بشاش، وكان أول ما سمعه صوت رجل ثقيل النبرة، يتكلم بهدوء من اعتاد أن يبشّر الناس بالنجاة وبغيرها في الجملة نفسها:

– حمد الله على السلامة يا أستاذ يوسف. إنت محظوظ جدًا، الانفجار كان ممكن يخلّص عليك.

– أنا... فين؟ هو إيه اللي حصل؟

– في مستشفى القصر العيني، بقالك تلات أيام في العناية. جهاز في المعمل انفجر، والزجاج اتناثر في وشك. بس الحمد لله، نظرك سليم، العدسات اتحمت. هنفك الشاش النهارده ونشوف.

سكت يوسف. لم يكن يشعر بألم؛ كان يشعر بشيء أغرب من الألم: شعورًا بأن في رأسه بابًا فُتح ولم يعرف بعدُ ما وراءه.

فُكّ الشاش ببطء، طبقة بعد طبقة، والضوء يتسلل إلى عينيه كما يتسلل الماء إلى أرضٍ يابسة. رأى الغرفة، ثم رأى الطبيب، ثم رأى كل شيء.

وأعني بـ«كل شيء» ما أقول بحروفه.

نظر إلى كوب الزجاج على الطاولة، فإذا بالكوب لا يبقى كوبًا. عرف، في لمحة أسرع من الفكر، أنه زجاج بوروسيليكات صُنع في مصنع بمدينة العاشر من رمضان في الربع الأول من عام ٢٠٢٣، وأن في قاعه خدشًا دقيقًا صنعته ملعقة معدنية من خارج المستشفى، وأن آخر من لمسه ممرضةٌ تستعمل كريمًا للأيدي بالخزامى والزيت الأرزي، وأنه غُسل بماء فيه نسبة كلور تفوق

المعتاد قليلًا. وعرف، فوق ذلك، أن الكوب سيتشقق من جهته اليسرى بعد نحو ثلاثة أشهر إن بقي على هذه الحال.

أغمض عينيه فزعًا، ثم فتحهما. لم يزل الذي رآه. نظر إلى الملاءة: قطن مصري خُلط بنسبة من البوليستر، نُسج في المحلة، وغُسل إحدى عشرة مرة. نظر إلى ساعة الطبيب: فولاذ لا يصدأ من طراز قديم، ورثها عن أبيه كما يدل تآكل الحافة عند موضع الإبهام. نظر إلى خاتمه فعرف عيار الذهب فيه، وفي أي ورشة فُصّلت أضلاعه.

وكان العجيب في الأمر أن المعرفة لم تأتِه بجهد. لم يكن «يحلّل» ولا «يستنتج». كانت الأشياء نفسها تحدّثه، وهو لا يملك إلا أن يسمع.

ثم أخذت الأشياء تتكلم كلها دفعة واحدة، كأن باب المدرسة فُتح على فناءٍ مزدحم. السقف: جبس صُبّ في الثمانينيات، وطُلي ست مرات، وفي طبقته الثالثة أثر ماءٍ تسرّب من شقة فوقه ذات شتاء. السرير: حديد مجلفن من ورشة في شبرا، وعلى قائمته اليسرى أثر يدِ مريضٍ سابق كان يتشبث بها من الألم. المحقن المعلّق: بلاستيك طبي من مصنع في الصين لم يمسّه بشر منذ ثمانية أشهر. حتى الهواء كان مقروءًا: رطوبة اثنتان

وخمسون في المئة، وفيه أنفاس مئتي مريض مرّوا في هذه الغرفة هذا الشهر، وبخار شاي بعيد من غرفة الممرضات.

— مالك يا أستاذ يوسف؟ وشك أصفر ليه؟

— ولا حاجة يا دكتور... بس الضوء تقيل شوية.

ابتسم الطبيب ابتسامة من يعتاد على مرضاه، وكتب شيئًا في ملفه، وقال وهو ينصرف:

— طبيعي. العين محتاجة وقت تتأقلم. ارتاح وأنا هبعتلك التمريض يجيب لك الأكل.

وخرج. وبقي يوسف وحده مع عالمٍ تحوّل إلى كتاب مفتوح، كل صفحة فيه مكتوبة بخطٍّ لا يستطيع أن يتوقف عن قراءته.

◉ غرفة ٤١٢ — بعد ساعة

الأحد ٨ نوفمبر · ٢:٢٠ ظهرًا

غرفة بسرير واحد ونافذة صغيرة تطل على فناء داخلي، لا يدخل منه من الشمس إلا ما يكفي لتمييز الأشياء. على الجدار ساعة مدرسية متوقفة منذ زمن، وفي الزاوية خزانة معدنية رمادية، وبجوار السرير طاولة عليها كوب وأوراق. كان الوقت عصرًا حين فُتح الباب، وخفتت أصوات المستشفى كما تخفت الأصوات

خلف جدار سميك، حتى بدا أن الغرفة كلها سفينة صغيرة طافية فوق ضجيجٍ عميق.

بعد ساعة دخلت الممرضة، فتاة في العشرينات اسمها «نهى» كما تقول البطاقة المعلّقة على صدرها، تحمل صينية عليها طبق شوربة وكيس محلول وريدي جديد. علّقت الكيس وهي تدندن لحنًا قديمًا، وضبطت المحبس، ثم قالت:

وقبل أن تضع الصينية، قرأ الشوربة في طبقها: عدس أحمر من حقول المنيا حُصد في الصيف الماضي، سُلق في قدر ألومنيوم قديم مقعّر القاع، وأُضيف إليه كمّون مطحون قبل أربعة أيام، وملح خشن من مملحة

بورسعيد، وبصل حُمّر في زيت ذرة أُعيد تسخينه مرتين. ولمس بخار الطبق وجهه، فعرف أن الطباخ رجلٌ خمسيني يُدندن وهو يطبخ، ويزيد الملح كلما حزن.

— ده آخر كيس النهارده يا أستاذ يوسف، وبكره إن شاء الله تخرج.

أومأ لها شاكرًا، ثم وقعت عيناه على كيس المحلول.

كان زجاجًا بلاستيكيًا شفافًا، عليه الملصق المعتاد: محلول جلوكوز ٥٪، ورقم التشغيلة، وتاريخ الصلاحية. غير أن عينيه، التي صارت لا تعرف الاكتفاء بالملصقات، قرأت ما وراءه: السائل في الداخل جلوكوز، نعم... ولكن فيه، مذابًا بنسبة لا تُرى ولا

تُشمّ ولا تُحَسّ، شيئًا آخر. مركّبًا لا علاقة له بالمستشفى ولا بالجلوكوز ولا بالشفاء. وعرف اسمه، وعرف أن قطرتين منه تكفيان لإيقاف قلب رجل في وزنه.

وعرف شيئًا آخر أشدّ هولًا: أن الثقب الدقيق في سدّادة الكيس لم يصنعه مصنع الأدوية. صنعته إبرة، في يدٍ ثابتة، قبل ساعتين فقط.

كانت نهى قد ابتعدت خطوتين نحو الباب حين التفتت إليه وسألته بلطف:

— تحب أوصّل الكيس بيدك دلوقتي؟

نظر يوسف إلى عينيها، ثم إلى الكيس، ثم إلى المحبس الذي يده على بُعد إصبع منه، وفكّر، للمرة الأولى في حياته، أن من يرى كل شيء قد يكون أكثر الناس تعرّضًا للموت.

الفصل الثاني

الرجل الذي لا يشرب

ليس أشدّ على النفس من أن تعلم ما لا يريد غيرك أن تعلمه، ثم لا تملك أن تُظهر أنك علمت. فالسرّ الذي يُحمل وحده أثقلُ من الجبل، لأن الجبل يراه الناس فيعذرون من يتعثر تحته، أما السرّ فلا يراه أحد، ويُطلب من حامله أن يمشي كأنه خفيف.

أجاب يوسف نهى بصوتٍ أراده أن يخرج عاديًّا، فخرج أهدأ مما ينبغي:

— سيبيه على الترابيزة يا نهى، شوية وأبقى أوصّله.

— الدكتور موصّي إنه ما يتأخرش يا أستاذ.

— وهو الدكتور اللي هيتعب مكاني؟

ضحكت ضحكة قصيرة، ثم صمتت. ورأى يوسف في هذا الصمت ما لم تُرِد هي أن يُرى: ارتجافًا خفيفًا في طرف الشفة السفلى، وعينين انزلقتا إلى الكيس ثم إلى الباب في لمحة واحدة، كمن يقيس المسافة بين ما فعل وما قد يترتب عليه.

وضعت الصينية، وقالت وهي تخرج:

— طيب، لو احتجت حاجة نادّيني.

وبعد أن أُغلق الباب، لم يتحرك يوسف دقيقة كاملة. كانت عيناه لا تزالان تقرآن. قرأتا الطرف الذي لمسته نهى من الصينية: بصمة أصبعين متعرّقتين من توتر، وفي كُمّها خيط صوف رمادي لا يُلبس في ممرضة بهذا القسم، ورائحة ياسمين رخيص فوق رائحة شيء آخر أشدّ حدّة. ثم، في جيب مريولها، ورقتان نقديتان من فئة المئتي جنيه، رقماهما متتابعان، خرجتا من حزمة واحدة لم تُفكّ منذ أن حزمها البنك المركزي، وصرفتهما ماكينة في فرع بالزمالك قبل ست ساعات.

قال في نفسه: ليست هي القاتلة. القاتل لا يحمل مالًا جديدًا في جيبه؛ فالمال الجديد أثرٌ، والقاتل

الحصيف يمحو آثاره. هذه فتاةٌ دُفع لها ثمنُ شيءٍ لم تُخبَر بحقيقته كلها.

نهض يوسف على ساقين ضعيفتين، وأخذ كيس المحلول بعناية بين طرف المنديل، فلفّه في كيس الوسادة، ودسّه في أسفل الدُّرج، تحت أوراق الخروج. ثم عاد إلى سريره وجلس، وأخذ يدرس الغرفة كما يدرس المحقق مسرح جريمة لم تقع بعد.

كان على ذراع الكرسي المجاور للسرير أثرُ رماد دقيق، رماد تبغ تركي من نوع لا يُباع إلا في محلٍّ واحد بوسط البلد؛ جلس رجلٌ على هذا الكرسي ساعاتٍ وهو نائم، ولم يُدخّن، ولكن كُمّه كان يحمل الرائحة، فسقط

الرماد من ثنية الكمّ حين مدّ يده ليتأكد أن النائم ما زال نائمًا. وعلى الأرض بجوار الكرسي حبّة رمل حمراء، من طين لا يوجد إلا في طريق الواحات.

◉ غرفة ٤١٢ — بعد ساعتين

الأحد ٨ نوفمبر · ٠٤:١٠ عصرًا

دخلت شمس العصر من النافذة الصغيرة مائلة برتقالية، وكشفت في هواء الغرفة ألف ذرة غبار تدور ببطء كأنها ترقص على موسيقى لا تُسمع. وكان على الأرض بلاط قديم أبيض ببقع زرقاء باهتة، وعلى الجدار رسم طفولي لشجرة تركه مريض سابق بقلم

رصاص، وتحته تاريخ وأمنية صغيرة محتها الممرضات مرارًا ولم تُمحَ كاملة.

ثم دقّ الباب.

— صباح الخير يا أستاذ يوسف. أنا النقيب هشام الشرقاوي، من المباحث. أتمنى ما أكونش تقلت عليك.

كان رجلًا في أواخر الأربعين، أنيق الهيئة، هادئ الصوت، له وجهٌ يوحي بالثقة وعينان تُحسنان الإنصات. جلس على الكرسي ذاته، ذاك الذي عليه الرماد، ثم أخرج دفترًا صغيرًا.

وقرأ يوسف بدلته قبل أن يقرأ وجهه: صوف إيطالي خفيف أزرق داكن، فُصّل في ورشة فاخرة بوسط البلد قبل سنتين لا أكثر، وفي بطانته الداخلية خيط أحمر رقيق يميّز صانعه، وزرّ ثالث استُبدل لأن الأصلي ضاع. وفي معصمه ساعة سويسرية لم تُغيَّر بطاريتها منذ عام. أما عطره فمزيج من ليمون ومسك ودخان، وتحت العطر كله، لا يخفيه أي عطر، أثر تبغ تركي قديم، وغبار أحمر دقيق لا يعرف مصدره بعدُ.

— الحادثة اللي حصلت في المعمل... إحنا بنعتبرها ماس كهربائي في الجهاز. إجراء روتيني بس، عايز أسألك كام سؤال.

– اتفضل يا حضرة النقيب.

– فاكر مين اللي سلّمك العيّنة اللي كنت بتفحصها؟ الجهة؟ الاسم؟

نظر يوسف إلى الرجل نظرةً طويلة، وهو يقول لنفسه إن أصعب فنون الدنيا هو أن تنظر إلى إنسان ولا تُريه أنك تراه.

رأى حذاءه: جلد إيطالي لامع، ولكن في خرزه الأيمن ذرات إسمنت جافّ لم تأتِ من ممرّات مستشفى ولا من مكاتب مباحث، بل من موقع بناء مفتوح. ورأى بنطاله، فإذا عليه غبار أحمر ذو ملمس يعرفه

جيدًا: طين طريق الواحات. ورأى كمّه الأيسر، وفيه ثنية صغيرة، وعليها رائحة التبغ التركي نفسه.

وما قاله النقيب عن «ماس كهربائي» لم يكن يشبه ما قاله وجهه؛ فالرجل الذي يصدّق أن الحادثة ماس كهربائي لا يسأل عن اسم من سلّم العيّنة، بل يسأل عن مفتاح الكهرباء.

— مش فاكر يا حضرة النقيب. كل اللي فاكره إنها وصلت الصبح بطلب إنها عاجلة. بس كل حاجة بعد كده بقت ضباب.

— طبيعي. الصدمة بتعمل كده.

ابتسم الضابط، ووضع على الطاولة بطاقةً بيضاء أنيقة:

– لو افتكرت أي حاجة، كلّمني على الرقم ده. أي وقت.

وقف، وصافحه، وخرج.

وحين خلا المكان، نظر يوسف إلى البطاقة. ورق مصقول عيار ثلاثمئة جرام، حبره أسود فاحم من نوع لا يطبعه مكتب مباحث في مصر. وعلى حافته أثر ضغطٍ خفيف لقلمٍ سبق أن كتب بجوارها ثم مُحي، ولا يمحو الأثر محوًا. قرأه يوسف كما تُقرأ الكتابة على الرمل: «الدكتور.. العباسية.. لا يعيش».

مرّت في صدره قشعريرة طويلة.

وفي تلك اللحظة، وفي هدوء الغرفة البيضاء، سمع يوسف صوتًا لم يكن صوت أحد. صوتًا خافتًا، رقيقًا، عاقلًا إلى حد مريب، كأنه صوته هو لو كان أذكى قليلًا وأقل خوفًا:

«عرفتَ في ساعةٍ ما لا يعرفه رجال الأمن في سنة. عرفتَ من قتل، ومن دفع، وأين يختبئ الخيط. وهذا الرجل الذي لبس عليك ثوب الضابط يخفي سرًّا يساوي ثروة، وأنت لا تملك ثمن علاجك. فلماذا تعطي هبتك للناس مجانًا؟ ولمَ لا تأخذ لنفسك ما تقدر عليه؟»

أغمض يوسف عينيه. لم يكن يعرف بعدُ أن هذا الصوت لن يفارقه.

الفصل الثالث

بيت الرماد

يقولون إن الشجاعة أن تواجه الخطر، وأنا أقول إن الشجاعة الأعسر منها أن تعرف الحقيقة وتسكت عنها ساعةً حتى يحين أوانها؛ فالخطر يُواجَه مرة، أما الصبر على المعرفة فيُواجَه في كل لحظة.

◉ مستشفى القصر العيني — بوابة الخروج

كان الفجر لا يزال رماديًا فوق شارع القصر العيني، وبائع الفول يرفع غطاء عربته الخشبية فتتصاعد منها سحابة بخار ذهبية، وقطط الشارع تتبع رائحة الخبز الخارج من فرنٍ قريب. أنوار السيارات تمرّ كأعين ناعسة على الأسفلت المبلل، وعلى بُعد خطوات يتنفّس النيل ببطء تحت ضباب خفيف، ونوارس صغيرة تتصيّد أول الضوء، وفي الهواء رائحة طين النهر وعوادم وقهوة.

خرج يوسف من المستشفى فجرًا، قبل أن يوقّع أحد على خروجه، وفي جيب معطفه كيس المحلول ملفوفًا في

كيس الوسادة. مرّ بمكتب التمريض فرأى نهى نائمة على كرسيها، وجهها مدفون في ذراعيها، وفي ركن الطاولة أمامها هاتف شاشته مكسورة، يضيء بين لحظة وأخرى باسم لم يُحفظ في دفتر: رقم فقط. لم يوقظها. فقد عرف أن من تُوقظها اليوم ستكذب غدًا، وأن من تتركها نائمة قد تعود إليه يومًا شاهدةً لا خصمًا.

وفي الشارع استقبله الصباح بكل ما فيه. كانت القاهرة كلها تتكلم. الرصيف يحدّثه عن أسمنته وعن العام الذي رُصف فيه، وأعمدة الإنارة عن مصانعها، وأوراق الأشجار عن عوادم السيارات التي ابتلعتها شهرًا بعد شهر.

ولم يكن يستطيع أن يسدّ أذنيه، لأن ما يسمعه لا يدخل من الأذن، بل من العين التي لا تُغلق إلا على ظلمة.

فتعلّم في تلك الساعة أول قواعده: ألّا ينظر إلى كل شيء. وأن النظر، كالسير في زحام، فنٌّ من فنون الانتقاء.

ثم تعلّم الثانية: أن للقراءة طبقات، وأن من لا يقرؤها بالترتيب يغرق. فالشيء الواحد يُقرأ على خمس درجات: جوهره أولًا، من أي مادة صُنع وبأي نسبة؛ ثم ميلاده، أين وُلد ومتى وفي أي يد؛ ثم الأيدي التي مرّت عليه واحدة بعد أخرى؛ ثم رحلته، أين سار وأي هواء تنفّس؛ وأخيرًا أثره، ما الذي ستفعله به الأيام.

وكان يسمّي هذه الدرجات في سرّه «طبقات القراءة»، ويدرّب عينيه على التدرّج فيها كما يتدرّب العازف على السلالم. وكان أول ما نجح فيه أن يقف عند الطبقة الأولى ولا يهبط، حين يكتفي بالجوهر ويترك الباقي.

◉ معمل «الأمانة» بعد الحريق — العباسية

الاثنين ٩ نوفمبر · ٠٧:١٥ صباحًا

كان الحريق قد ترك وجهه على كل شيء: الجدار الذي كان أبيض صار رماديًا ناعمًا يتقشر كجلدٍ محروق، والنافذة الحديدية التوت في إطارها كأنها تحاول الهرب، والبلاط المبلل بماء الإطفاء يلمع بسوادٍ زيتي، وأسلاك الكهرباء تتدلى من السقف كأمعاء مقطوعة. ورائحة

البلاستيك المحترق الحلوة المقيتة تعلق في الحلق، وتحت الحذاء يفرقع الزجاج المتناثر كجليد رقيق، وعلى الشريط الأصفر ترفرف الريح بصوت جاف كصوت ورقٍ يُمزَّق.

كان معمل العباسية قد صار هيكلًا أسود يفوح منه رماد مبلل، وقد شُدّ على بابه شريط أصفر كُتب عليه ما يُكتب في مثل هذه الأحوال. وعلى الكرسي أمام الباب كان عمّ سيد، الحارس العجوز، يشرب شايه ويتأمل الخراب كما يتأمل المرء قبرًا قريبًا.

— يا ساتر يا أستاذ يوسف! إنت هنا؟ ماكنتش عارف إنك خرجت.

– خرجت الصبح يا عم سيد. عايز أشوف المعمل.

– مينفعش يا بني، المباحث مانعين الدخول.

– أنا مش هدخل. بس هقف عند الباب أبص.

نظر العجوز إليه نظرة طويلة، ثم هزّ كتفيه كمن يقول إن الدنيا لا تستحق الجدال، وأفسح له الطريق.

وقف يوسف على العتبة، ونظر.

رأى ما لا يراه رجال المباحث الذين مرّوا هنا قبله، لأنهم كانوا يبحثون عن «سبب»، أما هو فكان الخراب يحدّثه بما جرى. رأى الجهاز المنفجر في ركنه، وقد تحوّل إلى كتلة معدنية ملتوية، وعرف أن صمام الأمان

فيه، الذي يُفترض أن يفتح عند ضغط معين فيمنع الانفجار، قد استُبدل بصمام آخر. صمام يشبهه في الشكل ويخالفه في الجوهر؛ فخطوات لولبه أضيق بجزء من عشرة من المليمتر، وسبيكته من نحاس خُلط بنسبة من الرصاص لا تُستعمل إلا في مسبك صغير بشبرا الخيمة، لا يصنع قطع الغيار، بل يصنع المسامير الرخيصة. وقد رُكّب الصمام قبل يومين بيدٍ يسرى، كما تدل علامات الأدوات على الحلقة الخلفية.

وقرأ السخام على الجدار كما يُقرأ دفترٌ مفتوح: الطبقة الداكنة السميكة بجوار الجهاز تعني حرارة ألف درجة لثوانٍ معدودة، والطبقة الرمادية الرقيقة على السقف

تعني دخانًا صاعدًا لا لهبًا، وعلى الأرض، تحت الرف الحديدي، ظلٌّ أبيض نظيف بحجم إنسان لم تمسّه النار. ثم أدرك أن ذلك الظل جسده هو، وقد حماه الرف من اللهب بسنتيمترات.

فالانفجار إذن لم يكن حادثًا. كان عملًا مدبّرًا بعناية، ولكنه لم يكن مدبّرًا ليقتل عاملًا مجهولًا، بل ليسكت من يقرأ نتيجة الفحص.

وعلى أرض المعمل، بين الزجاج المتناثر، لمعت قطعة صغيرة من وعاء العيّنة. التقطها بطرف منديله، ونظر إليها. عرف، قبل أن يقلبها، أن ما في باطنها ليس غبارًا عاديًا؛ بل أثر مركّب دوائي مغشوش، من فئة

المسكّنات القلبية، لا يحمل رائحة ولا لونًا، ولكنه يحمل ختم تشغيلة لم تُطبع على أي علبة دواء مرخّصة: «SG-7».

أدرك يوسف حينها بيقين لا يحتاج إلى أدلة أن العيّنة التي أُرسلت إليه كانت دليلًا على شيء كبير، وأن من أرسلها كان يظنه أداةً صماء تقول «مطابقة للمواصفات» مهما كانت النتيجة، وأنه، حين ثبتت النتيجة غير المطابقة، قرّر أن يمحو الرسالة والرسول معًا.

— لقيت حاجة يا أستاذ يوسف؟ — سأله عم سيد من مكانه.

— لقيت إن الدنيا أضيق مما كنت فاكر يا عم سيد.

وهمس الصوت في رأسه، ناعمًا كالحرير: «رقمٌ واحد على قطعة زجاج، ويمكنك أن تعرف من يربح من هذا الدواء المغشوش وكم يربح. معلومة كهذه تساوي في السوق أكثر من عمرك كله. ولو لم تبعها، فهي أقوى من أي سلاح».

شدّ يوسف قبضته على القطعة حتى كاد الزجاج يجرح كفّه، وقال لنفسه همسًا، كمن يخاطب شبحًا: «لا. لن أفعل».

فأجابه الصوت، بغير غضب: «لم أطلب منك أن تفعل. طلبتُ أن تعلم أنك تستطيع».

حين استدار ليغادر، كانت هناك امرأة تقف عند الطرف الآخر من الشريط الأصفر، تحمل كاميرا صغيرة وحقيبة جلدية، وتكتب شيئًا في دفتر.

كانت في أواخر العشرينات، نحيلة، شعرها مرفوع بدبوس بسيط، وعيناها واسعتان هادئتان، وفي وجهها ذلك النوع من الجمال الذي لا يلفت النظر، بل يتسلل إليه.

— حضرتك الأستاذ يوسف سالم؟ — قالت بصوت دافئ — أنا ليلى الحكيم، من شركة التأمين. بقالي يومين بدوّر عليك في المستشفى وما لقيتكش.

– من شركة التأمين؟ – قال وهو ينظر إليها.

– أيوه. عايزة أسأل حضرتك كام سؤال عن الحادثة، لو مش هتعب.

نظر يوسف إليها، كما كان ينظر الآن إلى كل شيء. ولكن النظر هذه المرة لم يأتِ بشيء.

رأى حذاءها: جلدًا بنيًّا نظيفًا، مهترئ الكعب بقدر ما يليق بامرأة تمشي في عملها. رأى حقيبتها: جلدًا معتدلًا، حواشيه متآكلة بقدر ما تتآكل حقيبة تُحمل ثلاث سنوات. ورأى بطاقتها المعلّقة: ورق وبلاستيك من شركة تأمين معروفة، وصورتها عليها، وتاريخ الإصدار

قبل عامين. ورأى قلمها، ودفترها، وساعتها الرخيصة، وكل شيء فيها يقول إنها كما تقول.

وكان هذا بالذات هو الشيء الذي أخافه.

فقد تعلّم، في الأيام القليلة التي تعلّم فيها قراءة الدنيا، أن الصدق لا يكون نظيفًا. الصدق فيه فوضى، وعيوب، وخيوط طالعة، وأخطاء صغيرة لا يتعمدها أحد. أما هذه المرأة فكانت كاملة الاتساق، حتى بدت كأنها مرسومة بيدٍ لا تخطئ، رسمتها لتُرى كما هي، لا كما تكون.

— طيب يا أستاذة ليلى — قال بابتسامة هادئة — اسألي. بس أنا لسه تعبان شوية، ممكن نقعد في أي

حتة؟

– طبعًا. في كافيه قريب، لو تحب. أنا اللي هدعوك.

ابتسمت. وكانت ابتسامتها صادقة تمامًا، أو بدت كذلك.

وسار إلى جانبها وهو يشعر بما لم يشعر به منذ سنين: بأن قلبه، الذي ظنّه صامتًا، قد اهتز اهتزازة خفيفة، وبأن عينه، التي ترى كل شيء، قد عجزت لأول مرة عن أن ترى امرأة واحدة.

ولم يدرِ يوسف أن أخطر الأسرار في العالم هي تلك التي تبدو، حتى لعين ثاقبة، بلا أسرار.

الجزء الثاني

الوسوسة

القضايا الأولى، وصوتٌ يهمس: لماذا تعطي هبتك مجانًا؟

الفصل الرابع

ما لا تقوله الأكواب

◉ كافيه «ركن القمر» — شارع رمسيس

الاثنين ٩ نوفمبر · ٠٨:٣٠ صباحًا

كان المقهى صغيرًا، تتدلى من سقفه مصابيح نحاسية عتيقة، وتلتصق على جدرانه صور باهتة لقاهرةٍ لم يعد يذكرها أحد. رائحة البنّ المحمّص تتسلل من الباب، وصوتٌ خافت لأم كلثوم يخرج من مذياعٍ لا يُرى. وعلى طاولة مستديرة قرب النافذة جلس رجلٌ يرى كل شيء، قبالة امرأةٍ لا يرى فيها شيئًا.

وضع النادل الفنجانين، وانصرف. نظر يوسف إلى فنجانه فعرف أن البنّ حُمّص أمس عند الفجر، وأن الماء سُخّن في غلّاية نحاسية على نار أهدأ مما ينبغي، وأن الفنجان صُنع في الصين لكنه غُسل في القاهرة ألفًا وخمسمئة مرة. ثم نحّى هذا كله جانبًا كما يُنحّى الغبار عن مكتب، وقد بدأ يُتقن ذلك.

كانت الطاولة رخامًا أبيض من محاجر المقطم، عليه حلقات باهتة من آلاف الأكواب، وفي قاعدتها الحديدية المزخرفة أثر طلاء أخضر قديم خُدش بكعب حذاء امرأة. وأما الكرسي الذي تجلس عليه ليلى فمن

خشب الزان المستورد في الخمسينيات، أُصلحت إحدى قوائمه بمسمار صغير من نوع لا يُباع الآن.

فتحت ليلى دفترها، وأخرجت قلمًا.

— ممكن أبدأ؟

— اتفضلي.

— الحاج منصور، صاحب المعمل، مؤمّن على المبنى والأجهزة بأربعة مليون جنيه. لحد هنا عادي. بس التأمين اتجدد قبل الحادثة بأسبوع واحد بس، وبشرط إضافي: تغطية الحريق والانفجار. — رفعت

عينيها إليه – يعني حد كان عارف يا أستاذ يوسف إن حاجة هتحصل.

– ممكن تكون صدفة.

– الصدف في شغلي نادرة. إحنا بنسمّيها «معلومات ناقصة».

ضحك، ثم نظر إلى القلم في يدها.

كان قلم حبر جاف رخيصًا في ظاهره. غير أن عينيه، التي لا تعرف الملل، قرأت ما في حبره: صبغة كربونية خالصة مخلوطة بصمغ نادر لا يُستعمل في الأقلام التجارية، ولمعة زرقاء خافتة لا تظهر إلا تحت

ضوء النافذة المائل. وكان يعرف هذا الحبر. عرفه قبل ساعات بين يديه: هو نفسه، بتركيبه، حبر البطاقة البيضاء الأنيقة التي تركها النقيب هشام الشرقاوي على طاولة المستشفى.

لم يتحرك وجهه. وهذا ما تعلّمه في أيام قليلة: أن الدهشة ترفٌ لا يملكه من يرى كل شيء.

— فاكر مين اللي بعت العيّنة؟ — سألته ليلى برفق.

— مش فاكر. الحادثة بوّظت ذاكرتي شوية.

— صعب. — وكتبت شيئًا. — طيب، سؤال أخير، ممكن يبان غريب: هو في حد كان ممكن يستفيد إنك

تموت؟

– أنا؟ – ضحك ضحكة قصيرة بلا مرح – أنا موظف بكتب تقارير يا أستاذة ليلى. ماحدش بيقتل واحد زيي.

– ماحدش بيقتل واحد زيك... إلا لو كان شاف حاجة.

وحدّقت فيه. لم تكن نظرة تحقيق، بل نظرة من ينتظر.

– يمكن شفت. بس لسه ما عرفتش أنا شفت إيه.

أخفضت عينيها كأنها تُخفي ابتسامة، أو سرًّا. وفي تلك الثانية القصيرة همس الصوت في رأسه: «حقيبتها مفتوحة نصف فتحة، وأنت تعرف الآن كيف تعرف. اقرأ ما فيها، ثم اسألها عمّا تخفيه، وسترى كيف تضعف».

نظر يوسف إلى الحقيبة، ثم أبعد عينيه. وأحسّ، للحظة، بحرارة القرار في صدره، كأنه واقف على عتبة غرفة مظلمة، ويده على مفتاح النور.

أغمض عينيه ثانية واحدة، وقال لنفسه: لا. ليس هكذا. لا مع هذه المرأة.

وحين فتحهما، رأى ليلى تنظر إليه بدهشة هادئة. لم تكن تعرف ما دار بينه وبين نفسه، لكنها لاحظت بلا شك أن شيئًا ما قد حدث.

◉ فيلا على طريق التسعين — التجمع الخامس
الاثنين ٩ نوفمبر · ٠٩:١٠ صباحًا

تعلو الكاميرا ببطء فوق بوابة حديدية سوداء، ثم تنزلق عبر حديقة مقصوصة بدقة، ثم رخام أبيض بارد، حتى تقف عند مائدة إفطار طويلة.

وفي الداخل قاعة استقبال بسقف عالٍ، تتدلى منها ثريا كريستال كشلالٍ متجمد، وأرضية رخام أبيض معروقة بخطوط رمادية، وزهور أوركيد بيضاء في

أصص صينية، ونافورة صغيرة تهمس في الركن. وعلى الجدران لوحات خيول وجنود لا تربط الدكتور شريف بها صلة، اشتراها مع الفيلا ليصنع منها ماضيًا. ورائحة الورد الطازج تعلو فوق رائحة سيجار ثقيل لا يظهر صاحبه.

جلس إلى المائدة رجل في الخامسة والخمسين، شعره فضيّ مسرَّح، يقشّر بيضة مسلوقة بأصابع مرتبة لا تعرف التسرّع. وأمامه، واقفًا بلا إذن في الجلوس، النقيب هشام الشرقاوي.

— قولّي يا هشام. الراجل عايش؟

– عايش يا دكتور شريف. خرج من المستشفى الفجر من غير ما يوقّع.

– والمحلول؟

– الممرضة بتقول إنها وصّلته له.

وضع الدكتور شريف البيضة في الطبق ببطء.

– بتقول. – ردّدها كمن يتذوق كلمة فاسدة – أنا ما بحبش كلمة «بتقول» يا هشام. أنا بحب كلمة «حصل».

– هتأكد.

— الشحنة SG-7، مليون علبة، هتتوزع على مئتين صيدلية الأسبوع الجاي. ومهندس صغير شاف اللي ما كانش المفروض يشوفه. — رفع عينيه — يبقى الراجل ده ما يبقاش قبل الجمعة.

— وفي واحدة من شركة التأمين بتسأل عليه. بتتابعه.

— شركة التأمين؟ — ابتسم — شركات التأمين بتحب الأوراق مش الناس يا هشام. سيبها.

وعاد إلى بيضته. وخلف زجاج النافذة كان المطر قد توقف، لكن أحدًا في الفيلا لم يلحظ ذلك.

وزارة الداخلية — إدارة البحث الجنائي

محضر رقم ٧١٤ لسنة ٢٠٢٦

الموضوع: بلاغ حريق وانفجار بمعمل تحاليل — العباسية

الخلاصة: «ماس كهربائي في جهاز الفحص. لا شبهة جنائية».

بخط اليد في الهامش: «يُحفظ».

◉ **كافيه «ركن القمر» — بعد ساعة**

الاثنين ٩ نوفمبر · ٠٩:٣٥ صباحًا

أغلقت ليلى دفترها، ووقفت.

— شكرًا يا أستاذ يوسف. أتمنى ما أكونش تقلت عليك.

– ماتقلتيش. – ثم، بلا حساب – أتمنى نتقابل تاني.

وكان هذا أول شيء يقوله بلا تفكير منذ أيام.

ابتسمت ابتسامة لم يعرف أصادقة هي أم متقنة، وقالت:

– لو افتكرت حاجة... كلّمني.

وتركت على الطاولة بطاقة بيضاء صغيرة. لم ينظر إلى الحبر هذه المرة؛ كان يعرف ما سيقرؤه.

ومشى خلفها بعينيه حتى اختفت في زحام رمسيس، وهو يفكر في أن أصعب ما في هبته ليس أنه

برى كل شيء، بل أنه لا يستطيع أن يختار أن يرى امرأة بقلبه لا بعينيه. وأن الحب، حين يبدأ عند من لا يُخدع، لا يكون حبًّا خالصًا، بل معركةً بلا سلاح.

ثم رنّ هاتفه بنغمة غريبة. رقم لا يعرفه. وعلى الشاشة جملة واحدة:

«لا تثق بأحد. أنا معك منذ ليلة الانفجار».

الفصل الخامس

الزمردة التي لم تُسرق

◉ خان الخليلي — زقاق الصاغة

الاثنين ٩ نوفمبر · ٠٣:٠٠ عصرًا

كان الزقاق ضيقًا كشريانٍ قديم، تتزاحم على جانبيه حوانيت الصاغة بواجهاتها الزجاجية المضاءة، وتتدلى فوقه فوانيس نحاسية مثقوبة تلقي على الجدران أنجمًا صغيرة من ضوء. وفي الهواء رائحة قهوة بالهيل وبخور عود وعرق ومعدن ساخن، وتحت ذلك كله صوت لا يتوقف: دقّات خفيفة متتابعة لمطارق صغيرة

على ذهب رقيق، كأن الحي كله قلب ينبض بنقرات من عصور مضت. وعلى بعد خطوات، من مئذنة الحسين، ينسكب نداء العصر.

وقف يوسف أمام محل صغير بواجهة خشبية مذهّبة الحواف، كُتب على لافتته بخط ثلث قديم: «فتحي وأولاده — جواهر». وكان قد وصل إلى هنا بنصف ما يملك من طاقة، بعين لم تتعلم بعد أن تغلق على الأشياء، وجسد لم ينم منذ فجر الأمس، ورقم هاتف كتبه له عم سيد على كفّه بقلم أزرق: «راجل طيب وعنده مشكلة. هيدفع كويس».

— إنت يوسف؟ — قال رجل ستيني ضخم الكتفين، بجلبابٍ قطني وطاقية بيضاء، يقف عند الباب كأنه حارسه — اتفضل يا بني. أنا الحاج فتحي.

◉ داخل محل الحاج فتحي

الاثنين ٩ نوفمبر · ٠٣:٢٠ عصرًا

محل لا يزيد عرضه على أربعة أمتار، لكنه عميق كحجرة كنز: فاترينات زجاجية تلمع تحت أضواء صغيرة صفراء، وفوق مخمل أحمر وأزرق تنام الأساور والخواتم والأقراط وصفوف الدبل كأنها جنود في ثكنة. وعلى الجدار الخلفي خزنة حديدية عتيقة بلون أخضر زيتوني، وبجوارها طاولة عمل صغيرة بمصباح ذراعي، عليها

ملقاط وعدسة ومطرقة صغيرة وكتل شمع. وفي الركن كرسي واحد مبطّن، جلس عليه رجل نحيل عجوز، يحمل في عينه عدسة معدنية ويفحص بين أصابعه حلقة ذهبية.

وعلى منضدة العرض الرئيسية، فوق وسادة مخمل داكنة، عقد من الذهب عيار واحد وعشرين، تتوسطه زمردة خضراء عميقة بحجم بيضة حمام.

— دي «زمردة الملكة» — قال الحاج فتحي بصوتٍ خفيض — أربعتاشر قيراط، كولومبية. اشتريتها من تلات سنين بمليونين وربع. وعرضتها شهر ينتظر زبون. وإمبارح، لقيت إنها مش هي.

– مش هي؟

– الشكل هو. اللون هو. بس لما فحصتها بالعدسة إمبارح بعد الصلاة... – تردّد – زمردة صناعية. مصنوعة. قيمتها في السوق عشرة آلاف جنيه، والأصلية بمليونين وربع.

– وإنت ما بلّغتش.

– مبلّغتش. – قالها بإصرار – لو بلّغت، اتفضحت. والمحلات جنبي هتعرف. وولادي. والتأمين. أنا عايز أعرف الأول. وعايز حد ما يكدبش.

نظر يوسف حوله. في المحل خمسة أشخاص غيره: الحاج فتحي، والرجل العجوز بالعدسة، وفتى في الرابعة عشرة بقميص متسخ يكنس الأرض بمكنسة قصيرة، وشاب أنيق في الثلاثين بقميص بنفسجي فاتح يقف عند الفاترينة ويتفقد هاتفه، وسيدة في الخمسين بوشاح حرير بلون الكرز تجلس على الكنبة القصيرة وفنجان قهوة أمامها.

— دول مين؟

— الأسطى أرام، صايغنا الأرمني، عنده تمانية وسبعين سنة ومعايا من أربعين. ده حمّو، صبي، تلات شهور عندنا. ده حازم، ابن أخويا، بيشتغل معايا وهو

اللي هيورثني. وهي الست إنجي، زبونة، جت تشوف العقد النهارده. — ثم أضاف بصوتٍ أدنى — وكلهم كانوا هنا، في الأيام التلاتة الأخيرة. كلهم.

◉ المحل نفسه

الاثنين ٩ نوفمبر · ٠٣:٥٠ عصرًا

وقف يوسف أمام العقد.

لم يلمسه. نظر إليه، وأخذت طبقاته تنفتح أمامه واحدة بعد واحدة، كما تنفتح ورقة بصل رقيقة.

الجوهر: ليست زمردة. بلّورة عُرِّضت في فرن بدرجة ألف ومئتين على مدى ثمانية أسابيع، في مختبر

بمدينة في سويسرا، فنمت بطيئة من محلول ذائب في معدن لاهب، وحملت في قلبها خيوطًا صغيرة منسوجة كأثر دخان لا يوجد في زمرد الطبيعة؛ فالطبيعي فيه ما يسمّيه الصاغة «الحديقة»، شوائب عشوائية كأنها ورق شجر محبوس، أما هذه فنظيفة نظافة رجلٍ يكذب.

الميلاد: وُلدت قبل أربعة أشهر، لا قبل ملايين السنين.

الأيدي: ثلاث أيدٍ: يد عاملة سويسرية، ويد تاجر في إسطنبول، ويد صايغ ثبتها في الذهب بصمغ شفاف، لا بالمخالب الأصلية، قبل ثلاثة أيام. وفي حافة الفصّ بقعة ضئيلة من صمغ لم يجف تمامًا، عليها بصمة إبهام فيها آثار

شمع الصاغة وعطر خشبي مقيم، ورائحة خفيفة من خمور فاخرة.

الرحلة: مرّت بدرج في الخزنة، ثم بجيب سترة داكنة، ثم بعلبة سجائر معدنية.

والأثر.

أخذ نفسًا، ثم نظر إلى الوسادة الزرقاء تحت العقد. كان في مخملها حفرة دائرية خفيفة بالمقاس نفسه، لكن أعمق من الدائرة التي يشغلها الحجر الصناعي بقدر ثلثي مليمتر: ضغطة حجر أثقل بكثير بقي مستقرًّا شهرًا كاملًا ثم رُفع.

ورفع عينيه إلى الغرفة.

◉ المحل نفسه

الاثنين ٩ نوفمبر · ٤:١٥ عصرًا

بدأ يوسف يسير ببطء بين الحاضرين، كما يمشي من يتفقد صفوف لوحات في متحف.

وقف أولًا أمام الأسطى أرام. كان العجوز يلبس نظارة سميكة ويحمل بين أصابعه حلقة، ويده ترتجف ارتجافة خفيفة. قرأه: أصابعه نحيلة مقوّسة من سبعين سنة من الإمساك بالأزاميل، وفي عدسته الصغيرة غبار ذهب لا يُحصى، وتحت أظافره بقايا حنّاء قديمة من زمن كان يلعب فيه مع ابنته الصغيرة قبل أن تموت.

وكان في جيبه تذكرة قطار قديمة إلى إسكندرية ما زال يحتفظ بها لأن عليها اسم محطة أحبّها.

— إنت قفلت الفصّ من تلات أيام يا أسطى؟ — سأله.

— أنا؟ — رفع رأسه بدهشة — أنا ما لمستش العقد من ثلاثة أسابيع يا بني، من يوم ما ركّبت الزرّ الخلفي. ده شغل حرام.

وكان صادقًا. فعلى عدسته غبار ذهب ناعم من حلقة صغيرة، لا من فصّ.

ثم مرّ على الصبي حمّو. كان الفتى يتنفّس بسرعة، ينظر إلى الأرض، وفي جيبه كيس صغير من الحلوى، وعلى كفه الأيسر علامة طين أحمر. قرأه: رغيف طري أكله في الصباح، وجزء من مصروفه سرقه لا من الحاج بل من أمه. ولم يكن لصًّا؛ كان خائفًا من أن يُسأل. وعلى صدره، تحت القميص، ورقة صغيرة مطوية بخط طفل: «ربنا يخلّي سيدي حازم يعطيني الإجازة».

ثم وقف أمام السيدة إنجي. قرأ وشاحها الحرير: قماش من حرير هندي، مغسول في البيت بصابون عطري من أحد الباعة. وحقيبتها الجلدية: خمسة مناديل، وعلبة أقراص ضغط، وفاتورة جواهرجي منافس في

ميدان الأوبرا بتاريخ الأسبوع الماضي. وكانت تهز ساقها بتوتر، لا من الذنب بل من الاستعجال.

— أنا؟ — قالت بنفاد صبر — أنا جيت النهارده بس. في ثلاث دقايق.

— وإنتي مش المشتري.

— أنا؟ — ضحكت — إنت مجنون؟

لكنها لم تكن تكذب. ولا يسع المرء أن يمتلك زمردةً كهذه من غير أن يبقى عليه أثرها: رائحة الأحجار الباردة ورقائق الأحمر والزرقة المعتادة، ولا شيء من هذا كان فيها.

بقي حازم.

◉ المحل نفسه

الاثنين ٩ نوفمبر ٠٤:٤٠ عصرًا

وقف الشاب عند الفاترينة، بقميصه البنفسجي الفاتح المكوي بعناية، وعطره الخشبي الغالي، وكان ينظر في هاتفه كأن شيئًا مهمًّا يحدث فيه. لكن يوسف رأى من أول لحظة أن الهاتف مطفأ.

قرأه.

أصابعه ناعمة ليست لعامل، وعلى إبهامه الأيمن أثر شمع الصاغة نفسه الذي في بصمة الفصّ. وفي جيب

بنطاله ورقة مطوية: إيصال رهان على سباق خيل من مضمار في الخانكة، بمبلغ عشرين ألفًا، سقط عليه ماء. وفي حافظته، بين الأوراق، بطاقة مصرفية صدر عنها قرض بنكي قبل أسبوع، وفي ظهر البطاقة اسم رجل مكتوب بقلم رصاص: «سمير — الأزهر — الرهن».

وفي علبة سجائر معدنية فضية، في جيب سترته الداخلية، رائحة ليست رائحة تبغ، بل رائحة معدن بارد، قاعدة صغيرة مخملية، وفتحة بقدر حجر نفيس.

— تلات أيام فاتت — قال يوسف بهدوء، وهو ينظر إلى الحاج فتحي لا إلى الشاب — حد فتح الفاترينة بالمفتاح الأصلي اللي بتلبسه حضرتك في رقبتك،

وأنت في الصلاة. شال الزمردة الأصلية، وحط مكانها صناعية بمليون أقل. وبعد كده، رهن الأصلية عند سمير في الأزهر.

خيّم صمت لا يُسمع فيه إلا دقات المطارق من الزقاق.

— ده افتراء — قال حازم بصوتٍ عالٍ، وهو يتراجع خطوة — إنت مين؟ إنت راجل غريب...

— الورقة اللي في جيب بنطلونك مبلولة. — قال يوسف — إيصال سباق الخانكة. في ظهر بطاقتك اسم سمير، الأزهر، الرهن. وفي علبة سجايرك الفضة، مقاس الزمردة. — ابتسم — وعلى إبهامك شمع

صاغة، من نفس الشمع اللي على فصّ الزمردة المزورة.

سقط الهاتف المطفأ من يد حازم. وتهاوى كتفاه، ثم جلس على الكرسي المبطّن، بوجه لا لون فيه.

◉ **المحل نفسه**

الاثنين ٩ نوفمبر · ٠٥:٠٥ عصرًا

— أنا عارف — قال الحاج فتحي.

نظر إليه الجميع.

وكان الرجل الستيني الضخم قد جلس على كرسي قصير، وأطرق، ويداه بين ركبتيه. صوته خرج بطيئًا

ثقيلًا:

– عارف من تلات أيام. من اللحظة اللي خرجت فيها من الصلاة، لقيت مفتاح الفاترينة اتحرك من مكانه على الحبل في رقبتي. أنا راجل عجوز، بحس بالحبل. – رفع عينيه إلى ابن أخيه – وما قلتش. استنيت. كنت بدعي إنك تيجي لوحدك تقولّي.

– عمّي...

– لكنك ما جيتش. فبعت أجيب حد ما بيكدبش.

– نظر إلى يوسف – مش علشان أعرف. علشان يعرف هو.

كان الصمت هذه المرة غير الصمت الذي سبق: صمت أهل، لا صمت قضاة. وبكى حازم، ووضع وجهه بين كفيه، وقال بصوت مبحوح:

— ديوني كانت فوق راسي. المقامرة. أنا آسف يا عمّي.

— هتروح لسمير وتجيب الزمردة. — قال الحاج فتحي بلا قسوة — وأنا هديك المبلغ تدفع بيه ديونك. وبعدين هتقعد جنبي في المحل سنة كاملة من غير راتب. وتتعلم إن الحجر الأصلي ما بيتبدلش.

◉ أمام المحل

غابت الشمس عن الزقاق، وتحولت الأضواء النحاسية إلى لهب أصفر ناعم، وامتلأ الهواء برائحة قهوة جديدة. وقف يوسف بجانب باب المحل، يتأمل الحاج فتحي يعدّ له بيده أوراقًا خضراء ويضعها في ظرف.

— تلات آلاف — قال — زي ما اتفقنا.

— حضرتك قلت إنك كنت عارف.

— عارف. بس ما كنتش قادر أقولها. كنت محتاج واحد ينطقها بدالي.

أخذ يوسف الظرف، وفي رأسه، ككمنجة بعيدة تتوتّر أوتارها، همس الصوت:

«ثلاثة آلاف؟ وهو معه خزنة مليئة بما لا تدري. وأنت قرأتها حين دخلت: دفاتر لا يعرفها المحاسبون، وذهب بلا فواتير، ومال لا يظهر في أي كشف. لقد صرتَ، في ساعة واحدة، أكثر من فنّي. فلماذا لا تتعامل معهم على هذا الأساس؟»

أمسك يوسف الظرف بقوة، ثم فتح كفّه وأخذ منه الألفين، وردّ الباقي.

— ألفين يكفوا.

– إنت اتفقنا على تلاتة!

– اتفقنا على اللي أستحقه. – قال – وأنا ما عملتش حاجة غير إني قلت اللي حضرتك كنت عارفه.

ضحك الحاج فتحي ضحكة قصيرة، وأعاد الظرف إلى جيبه، ثم ربّت على كتف الشاب بيد ثقيلة دافئة.

– إنت غريب يا يوسف. بس راجل. – ثم أضاف بصوتٍ خفيض – الدنيا فيها ناس كتير بتشوف. بس قليل اللي بيعرف يسكت.

ومشى يوسف في الزقاق بين الأضواء النحاسية، والمطارق ما زالت تدق على الذهب الرقيق، وفي رأسه صوت يضحك ضحكة صغيرة هادئة، لا غضب فيها ولا هزيمة، بل شيء يشبه الصبر.

الفصل السادس

الورقة المزوّرة

◉ شقة بالدور الثالث — شارع الإمام علي، مصر الجديدة

الثلاثاء ١٠ نوفمبر · ١٠:٣٠ صباحًا

كانت العمارة قديمة من طراز الثلاثينيات، بواجهة صفراء متقشرة وشرفات حديدية مزخرفة، ومدخلها رخام تآكلت درجاته من أقدام ثلاثة أجيال. وفي السلّم الخشبي المصقول ينعكس ضوء ضعيف من مصباح معلّق، وعلى الجدران رسوم أطفال قديمة بالطباشير غطّتها طبقات من الجير، ورائحة الشاي بالنعناع

والغسيل المنشور تتسلل من تحت الأبواب. وفي الدور الثاني قطة سوداء تتمطى على عتبة، وتتبعه بعينين خضراوين حتى منعطف السلّم.

فتحت الباب امرأة في الرابعة والسبعين، صغيرة الجسم كعصفور، لكن في عينيها صرامةً تُشبه صرامة من اعتاد أن يُطاع حتى في صمته. كانت ترتدي ثوبًا أسود، وفي عنقها سلسلة ذهبية رفيعة تتدلى منها عدسة صغيرة لا تنفع في شيء، سوى أن صاحبها أهداها إياها قبل ثلاثين سنة.

— إنت الأستاذ يوسف؟ عم سيد حارس المعمل قالّي عليك. قال إنك «بتشوف اللي ماحدش

بيشوفه».

– عم سيد بيحب يبالغ يا حاجة.

– وأنا بحب أسمع المبالغة من الناس اللي ليهم عندي حاجة. اتفضل.

كانت الشقة قديمة، أنيقة بقدم الأشياء الأنيقة: أرائك مخمل، وساعة جدارية تدقّ دقّات رصينة، ورائحة خشب وكتب وعطر عتيق. وعلى المائدة الكبيرة في الصالة وُضعت ورقة واحدة وسط كل ذلك الأثاث، كأنها ضيف لا يرحّب به أحد.

جلست الحاجة سنية، وقالت بلا مقدمات:

— جوزي، الدكتور عبد الرحمن، الله يرحمه، صيدلي. عاش عمره في صيدلية «الأمل». مات من تلات شهور. وابن أخويا تامر طلّع النهارده ورقة من درج مكتبه، بيقول إنها وصيّته. كاتب فيها كل حاجة لتامر: الصيدلية والأسهم والشقة، وأنا ولا حاجة. — صمتت لحظة — ده الراجل اللي كان بيقولّي كل ليلة: «سنية، هتكوني في أمان».

— وإنتي مش مصدّقة الورقة.

— أنا مصدّقة جوزي. الورقة دي لأ.

◉ المائدة نفسها

وضع يوسف الورقة تحت ضوء النافذة، ونظر.

كانت ورقةً صفراء، حوافها منخورة بعناية، وقد خُطّت بخطّ أنيق يُشبه خطّ طبيبٍ عتيق. وتحت التوقيع ختمٌ باهت، وتاريخ: ١٢ مارس ٢٠٢٤.

لكن عينيه رأتا الورقة كما هي.

رأى أن الورق صُنع في مصنع بمدينة السادس من أكتوبر، قبل ثمانية عشر شهرًا لا قبل ثلاثين سنة، وأن اصفراره ليس من الزمن بل من شاي مغلي سُكب عليه ثم جُفّف تحت مصباح حراري. ورأى الحبر: لم يجف

منذ تسعة أيام. ورأى التوقيع، وفي كل حرف منه ضغطةُ قلمٍ تتردد، كمن يرسم اسمًا لا يعرف كيف يُولد، لا كمن يكتب اسمه كل يوم. وعلى ظهر الورقة، لا يُرى لغير عينه، أثرُ بصمة إبهام تحمل رائحة عطر رجالي نفّاذ، ورذاذًا من حبرٍ آخر أُزيل بعناية: كان التزوير قد بدأ بمحاولة فاشلة ثم أُتقن.

— ورقة مزوّرة يا حاجة — قال بهدوء.

لم تُبدِ دهشة. أغمضت عينيها، وتنهّدت.

— عارفة. كنت محتاجة حد يقولها بصوت عالي.

◉ سيارة سوداء متوقفة أمام عمارة

قطعٌ إلى الشارع. سيارة فارهة، زجاجها معتم، وفي مقعدها الخلفي شابٌّ في الخامسة والثلاثين، أنيق إلى حدّ التكلّف، ينظر بين لحظة وأخرى إلى نافذة الدور الثالث. هاتفه على أذنه.

— ...إيوه يا دكتور شريف. مراتها فتحت للراجل. ما أعرفش مين هو، بس شكله فنّي معمل مش محقق.

وأتاه من الهاتف صوتٌ رخيم يعرفه القارئ:

— فنّي معمل؟ — ضحكة قصيرة — أنا بحب الفنّيين. بيبقوا مفيدين... أو بيبقوا مشكلة. اعرف اسمه يا تامر.

وانقطع الخط. وظل الشاب يحدّق في النافذة كما يحدّق مقامرٌ في آخر ورقة.

◉ كافيه «النوافذ الزرقاء» — مصر الجديدة

الأربعاء ١١ نوفمبر · ٠٩:٠٠ مساءً

كان الكافيه حديقة صغيرة داخل بيت قديم: نوافذ خشبية مطلية بالأزرق السماوي، وكراسي من الخيزران، وأصص ياسمين وريحان تتدلى من عوارض السقف، ومراوح نحاسية تدور ببطء فتحرّك رائحة القهوة والهيل.

وفي ركنٍ بعيد يلعب عجوزان الطاولة، وصوت النرد على الخشب يتتابع كخطوات صغيرة، وفي الراديو أغنية قديمة لا يعرف أحد لمن.

لم يعرض عليه تامر الصفقة بالكلمات. وضع ظرفًا أصفر على الطاولة، ودفعه بطرف إصبعه، كما يُدفع الشيء الذي لا يليق أن يُذكر اسمه.

— عارف إنك عرفت. وعارف إنك هتقول للحاجة.

— وبسط كفّيه — بس قبل ما تقول، اسمعني: مائتين ألف جنيه. ومحدش هيعرف.

نظر يوسف إلى الظرف، ثم إلى الرجل.

كان يعرف عن الظرف ما لا يعرفه عنه صاحبه: عدد الأوراق، ومن لمسها قبله، وأنها خرجت من ماكينة صرّاف في مدينة نصر قبل ساعة. ويعرف عن الرجل أنه ليس شريرًا في أصله، وإنما رجلٌ ضيّق الأفق ديونه فوق طاقته، دفعه الدكتور شريف إلى حافة فباع نفسه.

ويعرف عن نفسه، أيضًا، ما لم يُرِد أن يعرفه: أن مستحقات المستشفى تسعة وثمانون ألف جنيه، وأن مرتبه توقف منذ احترق المعمل، وأن في محفظته ثلاثمئة جنيه، وأن مائتي ألف تساوي سنتين من الطمأنينة.

وكان قد ظنّ أن ديون الغسيل التي استنزفت عشر سنوات من عمره قد انتهت مع جنازة أمه، فإذا بالديون تتعلّم اسمًا جديدًا.

وجاء الصوت، وقد صار صديقًا قديمًا:

«لا أحد يموت من هذا الظرف. الحاجة سنية تُكمل عمرها بمعاش زوجها، ولن تلاحظ الفرق. وأنت ستعيش. أليس غريبًا أن يكون العدل ترفًا لا يقدر عليه إلا الأغنياء؟»

وهذه هي الجملة التي تعلّم يوسف بعد ذلك أن يخافها: الجملة التي تكون نصف صحيحة.

مرّت ثواني. أحد عشر ثانية بالضبط، عدّها فيما بعد مرارًا. أحد عشر ثانية كان فيها رجلًا آخر، رجلًا يمدّ يده إلى الظرف. لم يمدّها. لكنه رأى كيف يبدو وهو يفعل.

ثم رفع عينيه إلى تامر، وقال بصوت لم يعرفه:

— ارفع ظرفك يا أستاذ تامر. وخد معاه نصيحة مجانية: الورق اللي إنت زوّرته مش هيصمد قدام أي معمل. وإنت عارف إني مش محتاج معمل.

ابتسم تامر ابتسامة ميتة، وقام.

— هتندم.

– ممكن. – وأمسك فنجان قهوته البارد – بس مش هندم النهارده.

وحين خرج الرجل، همس الصوت للمرة الأخيرة تلك الليلة، بلا غضب، بلا خيبة: «لم ترفضه حبًّا في الفضيلة يا يوسف. رفضته لأنك خفت أن ترى نفسك مرة ثانية».

ولم يجد يوسف ما يردّ به. لأنه كان صحيحًا.

◉ شقة الحاجة سنية

كان الغروب يلوّن الصالة بالبرتقالي حين وصل، والستائر المخملية نصف مغلقة، ومصباح الأباجورة مضاء على مائدة جانبية، وبخار الشاي يتصاعد من كوب صيني مزخرف بخطوط ذهبية باهتة. والساعة الجدارية تدقّ دقاتها الرصينة، وفي الهواء رائحة بخور وورقٍ قديم ومرارة دواء.

جاءها بتقرير مكتوب بخطّه وبصور للورقة تحت الضوء، وبعنوان معمل صديق تثبت فيه الفحوص ما رآه بعينيه. جلست الحاجة سنية، وقرأت، وضغطت يدها على صدرها وقالت:

– الحمد لله. كنت خايفة أكون هتجنّن.

– مجنّنة؟ – ابتسم – إنتي أعقل واحدة قابلتها في حياتي.

قامت لتصبّ له شايًا، وتعثّرت قليلًا، وأمسكت بحافة المائدة. فرأى يوسف شفتيها وقد ازرقّتا قليلًا. رأى أصابعها، ورأى حقيبتها المفتوحة على الكنبة، ورأى فيها شريطًا من أقراص بيضاء صغيرة ملفوفًا بغلاف ذهبي.

قرأه بعينيه. قبل أن يتحرك، قبل أن يفكر.

كانت أقراص تقوية القلب، من العلبة التي تأخذها منذ ثلاثة أسابيع. لكن ما بداخل الأقراص ليس دواء القلب. كانت فيها نسبة من مادة تُبطئ النبض، وتُضعف عضلة القلب، وتقتل ببطء صاحبها دون أن تُترك له فرصة أن يعرف. وعلى كل قرص ختمٌ دقيق، لا يراه إلا من يعرفه:

ولم يكن يوسف في حاجة إلى أن يعرف اسم المادة ليتعرّف عليها؛ فقد كان في كفّه، قبل اثنتي عشرة سنة، قرص يشبهها: قرص أبيض صغير بغلاف باهت، وضعته أمه في فمها وهي تبتسم وتقول: «ده دوا رخيص يا

يوسف، وبيعمل نفس الشغل». ولم ينسَ يومًا شكل ابتسامتها وهي تقولها.

«SG-7».

— حاجة سنية — قال، وصوته جفّ — إنتي بتاخدي الأقراص دي من فين؟

— من الصيدلية يا بني، تامر بيجيبهالي كل أسبوع. بيقول إنها نفس الدوا بتاع الدكتور الله يرحمه، بس بسعر أرخص.

نظر يوسف إلى الأقراص، ثم إلى الوجه الصغير المتعب أمامه. وفهم، في لحظة واحدة، أن هذه الورقة

المزوّرة لم تكن أخطر ما في البيت.

— حاجة سنية — قال، وأمسك الشريط بين طرفي أصابعه — ما تاخديش ولا قرص منها. أنا هاخدها معايا. وهنروح حالًا نشوف دكتور.

— دلوقتي؟ ليه؟ هو في إيه؟

— في إنّ ابن أخوكي ما كانش بيسرق فلوسك بس.

الفصل السابع

الرجل ذو التبغ التركي

◉ مستشفى هليوبوليس — قسم الطوارئ

الخميس ١٢ نوفمبر · ٠٧:١٥ مساءً

الطوارئ في تلك الساعة بحرٌ من الضوء الأبيض والصراخ المكتوم: نقالات مصطفة على الجدران، وأم تحتضن طفلًا محمومًا، وأنين رجلٍ بذراع مكسورة، وصوت أجهزة المراقبة يتشابك كجوقة من الصفير. والأرض تلمع بماء المسح، ورائحة المطهّر تحاول عبثًا أن

تغلب رائحة العرق والخوف، وتحت المصابيح الفلورسنت تبدو الوجوه كلها بلون الشمع.

دخلت الحاجة سنية الطوارئ على كرسي متحرك، ووجهها شاحب كورقة قديمة، وعلى صدرها سلكان رفيعان يرسمان على الشاشة خطًّا يتمّهل أكثر مما ينبغي. صاحت الطبيبة الشابة، مُنى رأفت، بعدد قليل من الكلمات، فتحرّك المكان كله حول المرأة الصغيرة كما يتحرك الماء حول حجر وقع فيه.

— النبض ثمانية وثلاثين... جهّزوا الحقنة... بسرعة!

وقف يوسف عند باب الغرفة يُمسك بشريط الأقراص في يده، ولا يستطيع أن يمنع عينيه من

القراءة: الجدران تحكي عن طلائها، والأجهزة عن مصانعها، والطبيبة، وهي تصرخ، عن ليلة لم تنم فيها منذ يومين وعن ابنةٍ صغيرة تنتظرها في البيت. وكان وسط هذا الضجيج كله يتمنى شيئًا واحدًا: أن تتحرك القراءة قليلًا نحو رقم النبض.

بعد عشرين دقيقة، صعد الخطّ على الشاشة ببطء، كأن أحدهم يمسك بطرفه ويشدّه من قاع بئر. خرجت الطبيبة مُنهكة، ومسحت جبينها، وقالت:

— كانت لحظات يا أستاذ. جابوها في آخر وقت. إيه الأقراص اللي بتاخدها؟

ناولها الشريط. نظرت إليه، ثم رفعت عينيها بوجهٍ تغيّر.

— دي مش أقراص القلب اللي أعرفها... ده ختم غريب.

— عارف. محتاج تحليلها وتتحفظ كأمانة. وماتسلّميهاش لأي حد، حتى لو جه بكارنيه.

— حتى لو...؟

— حتى لو.

جلس يوسف على مقعد في الممر، وأسند رأسه إلى الجدار، وأغمض عينيه لحظة.

— حمد الله على سلامتها.

كان الصوت خشنًا، دافئًا، لا يُشبه صوت ضابط ولا طبيب. وحين فتح عينيه رأى على المقعد المجاور رجلًا في أوائل الخمسين، ضخم الكتفين، شعره المشيب غير مُسرَّح، وفي أصابعه سيجارة غير مشتعلة. وفي الهواء رائحة تبغ تركي، وفي حذائه ذرّات من طين أحمر.

قرأه يوسف، كما يقرأ كل شيء، لكن هذه المرة بدهشة. كان الرجل مُشوَّشًا كحياةٍ حقيقية: زرّ قميصه الثالث مخيط بخيط لا يشبه لونه، وساعته تتأخر دقيقتين، وفي جيب سترته ثلاث أوراق مطوية لقضايا قديمة لم يتخلّ عنها. فوضى الصدق، التي افتقدها عند ليلى.

– إنت اللي بعتلي الرسالة؟

– ماهر الدرديري. كنت مفتش صيدلة في وزارة الصحة لحد من سنة ونصف.

– وإيه اللي حصل من سنة ونصف؟

– كتبت تقرير. – ابتسم ابتسامة متعبة – إنت كاتب منهم ألف. أنا كتبت واحد بس، وكان الأخير.

وضع السيجارة بين شفتيه، ثم أخرجها دون أن يشعلها.

— SG معناها «شفاء جولد»، اسم الشركة بتاعة الدكتور شريف الصباغ. والرقم سبعة معناه التشغيلة السابعة. السادسة اتوزعت في الصعيد السنة اللي فاتت، ومات منها أربعين واحد، والمحضر كان: «ماس كهربائي في ثلاجة التخزين».

— ماس كهربائي، تاني.

— ده الشيء الوحيد اللي الراجل ده بيعرف يعمله في المحاضر.

صمتا. ثم قال الدرديري، وهو ينظر إلى الأرض:

– قعدت جنبك تلات ليالي في المستشفى. مش علشان أحميك. علشان أعرف إنت مين. وحين خرجت من غير ما توقّع... عرفت إنك عرفت. اللي أنا بدوّر عليه من اتنين وعشرين شهر، إنت وصلتله في تلات أيام.

– بالعين.

– بالعين. – لم يسأل أكثر. كان رجلًا يعرف متى يترك السؤال معلّقًا – وعلى فكرة، مين الست اللي قابلتها امبارح الصبح؟

تردّد يوسف.

– ليلى الحكيم. من شركة تأمين.

– مفيش موظفة بالاسم ده في الشركة اللي قالت عليها. – رفع كتفيه – بس ده ما يثبتش حاجة. بس ظهرت واحدة بنفس الوصف في تلات قضايا قبل كده، بأسماء تانية. وفي كل مرة، كان في حد بيموت بعد ما يقابلها.

لم يتحرك وجه يوسف، لكن شيئًا ما انزلق في صدره، كما ينزلق حجر في ماء ساكن.

◉ سيارة متوقفة على كورنيش النيل

كان النيل تلك الليلة أسود لامعًا كحجر الأوبسيديان، تعكس سطحه أضواء الكباري والفنادق في خطوط ذهبية مرتجفة، وعلى الضفة المقابلة تعبر فلوكة صغيرة بشراع أبيض يلتقط ضوء الشارع. ونسيم بارد يحمل رائحة الماء والطين وشيئًا من الدخان.

ضوء المدينة ينعكس على زجاج السيارة كأنه ماء بتحرك. وفي المقعد الأمامي، امرأة وحدها.

تنزع شريحة من هاتفها، وتضع أخرى. تفتح الشاشة، فتظهر صورة: وجه رجل في أواخر الثلاثينات، ملامحه متعبة، وعيناه غريبتان كأنهما تنظران إلى ما

وراء الأشياء. تلمس الصورة بطرف إصبعها، ثم تسحب يدها كمن لمس نارًا.

رسالة قصيرة تظهر على الشاشة:

«هو الآن مع الدرديري. هل أتدخل؟»

يأتيها الرد بعد ثوانٍ:

«لا. دعيه يصل».

تقرأ الرد مرتين. وحين تضع الهاتف على المقعد، لا تبتسم ابتسامتها المتقنة، بل ابتسامة أخرى، متعبة، لا تُشبه أحدًا. ثم تدير المفتاح، وتغيب في ظلام الكورنيش.

◉ مقر إدارة مكافحة جرائم الأدوية — العباسية

الجمعة ١٣ نوفمبر · ٠٦:٠٠ صباحًا

كان المبنى من الطراز الحكومي القديم: درج رخامي واسع، وأبواب خشبية سميكة بمقابض نحاسية لمعتها آلاف الأيدي، وممر طويل تتدلى منه مصابيح معدنية بطيئة الإضاءة. وفي مكتب العميد ستائر دانتيل مصفرّة، وخزانة ملفات خضراء من صلب ثقيل، وساعة جدارية متأخرة ثلاث دقائق كأنها تفضّل الماضي، وفوق المكتب شهادات تقدير مؤطّرة غطّى الغبار نصفها، وفي الركن مروحة تدور بصوتٍ أجشّ.

كان العميد وجدي عبد الصبور رجلًا في الثامنة والخمسين، ذا شاربٍ كثّ وعينين متعبتين، يجلس خلف مكتب قديم عليه كوب شاي بارد وملف أصفر سميك. صافح الدرديري بحرارة، ثم نظر إلى يوسف بما يُشبه الريبة.

— ده الراجل؟ شكله فنّي معمل.

— هو فنّي معمل.

— وهيفيدنا إزاي؟

ابتسم يوسف، ونظر حوله.

– حضرتك بتشرب شاي بالنعناع من كوب ما اتغسلش كويس من سنة، لأن زوجتك الله يرحمها كانت بتحب النعناع وانت مش عايز تغيّر. بتصحى الفجر كل يوم عشان البلكونة، بس النهارده ما نمتش لأنك قرأت الملف ده تلات مرات. وفي درج مكتبك علبة سجاير تركي من محل وسط البلد، بتخبّيها من الدكتور لأنك وعدته إنك مش هتدخّن.

ساد صمت طويل. لم يضحك العميد ولم يغضب. نهض ببطء من خلف مكتبه، ودار حوله دورة كاملة، كمن يطوف حول لغزٍ يخشى أن يلمسه. نظر إلى كوب الشاي، ثم إلى الدرج المغلق، ثم إلى النافذة التي لم

يفتحها أحد منذ الفجر. وكان في وجهه ما يكون في وجه رجل أمضى ثلاثين سنة في تصديق الأدلة، فإذا بدليلٍ يقف أمامه على قدمين.

مال على الدرديري، وسأله بصوت خافت، كأنه يخشى أن يسمعه صاحب الشأن:

— ماهر... الواد ده عرف كل ده إزاي؟ ده مش كلام بيتقال من بره. مراتي الله يرحمها ما كانش حد يعرف إنها بتحب النعناع غير عيالي.

— مش عارف يا باشا. أنا شفته بيعمل أكتر من كده.

– بيعمل إيه؟ هو مخبر من بتوعك؟ ولا بعتوه لي بتوع الدكتور شريف يختبروني؟

– لو كان من بتوع الدكتور شريف، ما كانش قاعد قدامك بالحال ده.

لكن الشك كان قد استغرق العميد، وراح يتأمل يوسف مرة أخرى، كأنه يبحث في ملامحه عن سلكٍ خفي أو سماعة أذن. ثم قال بحزم من لا يريد أن يُصدّق:

– أنا مش مصدّق. حد بلّغه. فيه حاجة غلط.

ابتسم يوسف ابتسامة متعبة:

– ياريت كانت غلط يا باشا.

والتفت إليه الاثنان.

– من أسبوع كنت مهندس مواد عادي. فحصت عيّنة، والجهاز انفجر في وشي. صحيت من الغيبوبة، لقيت عيني بقت بتشوف كل حاجة. أي حاجة أبصّ لها أعرف مادتها وعمرها واللي لمسها... من غير ما أحاول. – خفض صوته – ده مش ذكاء يا باشا. ده كأن حد شال ستارة كانت قدام عيني طول عمري.

خيّم صمتٌ أطول من الأول. ثم قال الدرديري بهدوء، وهو يقلّب سيجارته غير المشتعلة بين أصابعه:

— الحادثة غيّرت فيه حاجات يا باشا. أنا بصراحة ما صدقتش أول ما شفت. بس بعد تلات ليالي قاعد جنبه، فهمت. هو زي واحد اتشال عنه الحجاب. بيشوف الأشياء على حقيقتها، من غير اللي بيغطيها.

أطرق العميد، ومرّ بيده على شاربه الكثّ، كمن يُعيد ترتيب العالم في رأسه من أوله:

— يعني... مش خدعة.

— لأ يا باشا.

— ومش بيتعب؟

— بيتعب — قال يوسف — بس مش من العين. من اللي بتشوفه.

أخذ العميد نفسًا عميقًا، ثم أومأ ببطء، وفي عينيه ما هو أقرب إلى الاحترام، وأقرب منه إلى الخوف.

إدارة مكافحة جرائم الأدوية — سري للغاية
تكليف خبير فني (بصفة غير معلنة)
الاسم: يوسف سالم — مهندس مواد
المهمة: فحص المضبوطات والمعاينة الفنية للمواقع
بند خاص: لا يُذكر الاسم في أي محضر رسمي

فتح العميد الملف الأصفر، وأدار صفحاته على مهل.

– الشحنة هتتوزع الليلة. مخزن في ميت غمر، تحت غطاء مصنع ثلج. مفيش إذن نيابة، لأن البلاغ الأصلي اتحفظ من شهرين: «ماس كهربائي». – صمت – اللي حفظه النقيب هشام الشرقاوي.

وفي الثانية التي نطق فيها الاسم، رأى يوسف ما لم يستطع العميد أن يُخفيه: خوفًا قديمًا، لم يكن الخوف من رجل، بل من كل ما يقف خلفه.

– وإيه المطلوب مني؟

– إنك تيجي معانا الليلة. الساعة إحدى عشرة. وإنك تقول لنا، لما نوصل، إيه اللي في المخزن بالظبط. قبل ما ندخل.

وقف يوسف، وخرج إلى نافذة المكتب. ومن الشارع، من بعيد، رأى الفجر يلوّن مباني العباسية بلون رمادي مُتعب.

وأتاه الصوت، رقيقًا هذه المرة، قريبًا كنَفَس:

«في ذلك المخزن خزنة، ولا يعرف ما فيها أحد غيرك. أنت لن تفتحها، بالطبع. لكنك ستعرف».

وضع يوسف جبهته على الزجاج البارد، وقال بصوت لا يسمعه غيره:

— عارف. وده بالظبط اللي بخاف منه.

الفصل الثامن

الصيدلي الذي أغلق الباب من الداخل

◉ شارع شبرا — أمام صيدلية «الحياة»

الجمعة ١٣ نوفمبر · ١٠:٠٠ صباحًا

شارع شبرا في صباح الجمعة وجهٌ آخر للمدينة: الحوانيت مغلقة بأبوابها الحديدية المطلية، والرصيف خالٍ إلا من بائع ذرة يوقد فحمه وكلب نائم عند عمود النور وعجوز تكنس عتبة بيتها بمكنسة من سعف. والهواء رطب فيه رائحة خبز بلدي بعيدة وبخور المساجد قبل

الصلاة، والترام القديم يمرّ في آخر الشارع بجلجلة معدنية طويلة. وفوق الأسطح تنشر النساء الغسيل في صفوف من الألوان الباهتة.

وتحت لافتة طويلة زرقاء كُتب عليها بخطٍّ مشرق «صيدلية الحياة — د. حسن عبد الباقي»، وقفت سيارتا شرطة وسيارة العميد وجدي، وحول الباب الحديدي المرفوع نصفه تجمّع الجيران في صمتٍ خشن.

خرج يوسف من السيارة، ورفع عينيه إلى اللافتة.

وتوقف.

لم يكن في اللافتة شيء يُقرأ. لكن في ركن الواجهة، عند الدرجة الحجرية الثانية أمام الباب، كان هناك شيء أقدم من كل ما قرأه في أسبوعه: ذكرى. شتاء قديم، ويد دافئة تمسك يده الصغيرة وهما يعبران الرصيف نفسه، وصوت امرأة تقول: «استنى هنا يا يوسف، دقيقة وراجعة».

— إنت كويس؟ — سأله ماهر.

— الصيدلية دي... — خرج صوته جافًّا — أمي كانت بتشتري منها.

ولم يقل أكثر. نظر ماهر إلى اللافتة، ثم إليه، وعرف، دون أن يُقال له، ما كان يقف بينهما.

◉ داخل الصيدلية

الجمعة ١٣ نوفمبر · ١٠:٢٠ صباحًا

صيدلية قديمة الطراز: رفوف خشبية مطلية بالأبيض ترتفع إلى السقف، وفي كل رفّ علب ملوّنة مرصوصة بنظام من اعتاد أن يرى الدنيا مقسّمة إلى أصناف. فوق المنضدة ميزان نحاسي صغير، وأوعية زجاجية بنية فيها شراب ومساحيق، وساعة كبيرة بإطار أخضر متوقفة على الثالثة وعشر دقائق. وفي الركن ثلاجة أدوية تئز بصوت منخفض، وفي الهواء رائحة كافور وكحول ونعناع ومرارة أقراص قديمة، وتحت ذلك كله شيء أرق وأوحش: رائحة خوف جفّ على الجدران.

قادهم الرائد عصام الفخراني، ضابط مباحث شبرا، قصير القامة مكتنز الوجه، إلى غرفة في عمق الصيدلية.

— المخزن. — قال — الدكتور حسن اتقفل على نفسه من جوّه امبارح بالليل. مراته بعتت ابنها الصبح لمّا ما رجعش، وكسّروا الباب. لقيناه متعلّق من الخطّاف اللي كان بتاع المروحة القديمة. ومفتاح الباب في القفل من جوّه، والترباس مقفول، والشبّاك عليه حديد. ما حدّش دخل ولا خرج.

— يعني انتحار؟ — قال العميد وجدي.

— الطب الشرعي مبدئيًّا بيقول كده. بس الست مراته بتقول إنه ما كانش ممكن.

وقف يوسف على عتبة المخزن.

◉ المخزن

الجمعة ١٣ نوفمبر · ١٠:٣٥ صباحًا

غرفة ضيقة بلا نوافذ إلا كوّة صغيرة مغطاة بقضبان، تتكدّس فيها كراتين وأكياس شاش وعلب قديمة، ومكتب صغير في الركن عليه مصباح مكسور وكوب شاي نصفه ممتلئ وكوب آخر مقلوب. وفي منتصف السقف الخطّاف الحديدي، يتدلّى منه حبل ليف مجدول، وتحته كرسي خشبي مقلوب.

رأى يوسف الجثة.

لم تكن موجودة، فقد حُملت منذ الصباح. لكنها كانت لا تزال هناك، في مكان تركته الأشياء: الحبل تحمل ليفه أثر ثقل قياسه ثمانون كيلو. الكرسي حفرت قدمه الأمامية خدشًا في الأرضية. والهواء ما زال يحمل رائحة رجل في الثامنة والخمسين، بعطر الحلاقة نفسه الذي يلبسه منذ ثلاثين عامًا.

ثم بدأ بالطبقات.

الجوهر: الحبل ليف نخيل مجدول، من ورشة في الفيوم، سُلّم إلى صاحب محل عدّة بحرية في شبرا الخيمة. الميلاد: عمره ست سنوات، ملفوف ومخبّأ في صندوق سيارة، لا في صيدلية؛ فالأوتار فيه ما زالت

مضغوطة بشكل لفات أخرى لا بشكل لفة واحدة. الأيدي: يدان فقط، يد صانع ويد رجل ضخم الكفّين لا يلبس الخواتم، وليست يد الدكتور حسن؛ فليس فيه ليف نخيل واحد، ولا ملح عرقه. الرحلة: حُمل في كيس بلاستيك أسود، ودخل من الباب الأمامي.

وقرأ الكوب.

الكوب المقلوب لا يقول شيئًا. لكن الكوب المليء، بشاي مضبوط السكر، فيه سبب آخر: حبة قرص ذائبة، من نوع يُصرف بوصفة، مهدّئ قوي يُذيب صاحبه في نوم عميق خلال عشرين دقيقة. وعلى حافته أثر شفاه رجل، لا شفاه الدكتور حسن.

وقرأ الباب.

وكان الترباس مغلقًا من الداخل، ومعه المفتاح في القفل. لكن عند عنق الترباس، في أخدود ضيّق لا براه أحد، لمعت خيوط دقيقة، شفافة، من النايلون، ملفوفة لفة واحدة حول الترباس ثم سُحبت من أسفل الباب. خيط صيد.

— انتحار؟ — همس لنفسه — لأ.

◉ أمام مكتب الصيدلية

الجمعة ١٣ نوفمبر · ١١:١٥ صباحًا

جاء صوت امرأة عجوز من الباب الأمامي:

— دكتور حسن اتقتل!

دخلت امرأة في الثانية والستين، بعباءة سوداء وطرحة رمادية، وعيناها منتفختان من بكاء الليل. الحاجة ثريا، بائعة الدواء منذ أربعين سنة. توقفت عند باب الصيدلية، تنظر إلى الوجوه واحدًا واحدًا، ثم تجمدت.

كانت عيناها قد وقعتا على يوسف.

— إنت... — قالت بصوتٍ مرتعش — إنت ابن الست عفاف.

— أيوه.

— موظفة المدرسة الابتدائية. اللي كانت بتيجي ومعاها ابنها الصغير. — وضعت يدها على فمها — يا ساتر. كبرت. بقيت راجل.

لم يتحرك يوسف. كان في الغرفة سبعة أشخاص ولم يعد يرى إلا امرأة عجوزًا بعباءة سوداء، ومن خلفها، كأنما انفتحت نافذة في الجدار، شتاء ديسمبر ٢٠١٤: ثريا نفسها أصغر باثنتي عشرة سنة، تمدّ علبة بيضاء من وراء الزجاج وتقول بابتسامة مهذبة: «دي بتعمل نفس الشغل يا مدام، وأرخص».

— أنا اللي بعتتلها العلبة — قالت ثريا، وانهمرت دموعها — أنا يا بني. ما كنتش أعرف إنها وحشة.

الدكتور حسن كان بيشتريها من مندوب، وبيقول عليها كويسة.

أغمض يوسف عينيه.

وجاء الصوت، بنعومة أصدقاء قدامى:

«لقد جاءك الأمر كاملًا: هذا هو الرجل الذي باع أمك الدواء المغشوش، وقد مات. تعلّم من الطب الشرعي أن يكون انتحارًا. أغلق عينيك الآن وقل لهم: الأمر واضح. ولا أحد سيسألك، ولن تكون قد كذبت، فأنت لم تقل شيئًا. دع الميت يموت ميتة المجرمين».

لم يكن يوسف يتنفّس.

كان يعرف أن هذا يستحق. كان يعرف أن كل ما فيه يريد. وكان يعرف، في الوقت نفسه، أن هذا الرجل لو مات منتحراً ما كان ليموت لأنه ندم. بل كان رجلًا قُتل لأنه كان سيتكلم.

فتح عينيه.

— مش هيرجّعها — قال، بصوتٍ لم يعرف أنه يسمعه — اللي هيقتلني إني أسيبه يتقتل. والاتنين يحاربوا نفس الحقيقة.

جلس أربعة أشخاص على مقاعد خشبية في وسط الصيدلية، كما يجلس المتهمون في فصل قديم: عادل عبد الباقي، شقيق الصيدلي، في الثالثة والخمسين، بوجه ناعم وسترة كحلية، ويداه تعبثان بمسبحة. الحاجة ثريا، بعباءتها السوداء. أيمن حسني، مندوب مبيعات في أربعين من عمره، بقميص أبيض نظيف وربطة عنق بلون الرمل. وعزّت، محصّل ديون ضخم، ببدلة رمادية ضيقة ولحية قصيرة، يتفقد ساعته بنفاد صبر.

وقف يوسف أمامهم، وخلفه ماهر والعميد وجدي والرائد عصام. وكانت الشمس تدخل من الباب

المفتوح وتقطع الأرضية بنصف دائرة ضوء.

— الدكتور حسن اتقتل — قال.

تحرك الحاضرون في مقاعدهم.

— مش انتحار. وأقول ليه. — رفع إصبعًا — الحبل ليف نخيل، حُمل في كيس أسود، ومجدول في ورشة في الفيوم. حد جابه من بره، من عربية، وكان عنده نية. حد ما كانش يعرف الدكتور حسن هيحتاج حبل.

— الجيران... — بدأ عزّت.

– لما نخلص. – قال يوسف بهدوء، ثم رفع إصبعًا ثانيًا – الكوب. الدكتور حسن شرب شاي فيه مهدّئ قوي، من النوع اللي بيتصرف بوصفة. بدأ يغيب بعد خمستاشر دقيقة. والكوب التاني، اللي كان بيشرب منه الضيف، كان عليه آثار شفايف راجل غير الدكتور.

– ضيف؟ – قالت ثريا – كان في ضيف امبارح؟

– كان. – قال يوسف – واتنين من الحاضرين دلوقتي مرّوا هنا امبارح بالليل. عادل، وأيمن.

تجمد عادل. وابتسم أيمن ابتسامة نظيفة، واثقة:

– أنا زرت الدكتور حسن امبارح الساعة تمانية، لأن ده شغلي. أنا مندوب شركة توزيع. وخرجت قبل التاسعة.

– بالظبط. – قال يوسف – وعادل زاره الساعة ستة ياخد سلفة وخرج، وفي جيبه وصل بإمضاء الدكتور حسن. فاضل أيمن. وهو آخر واحد شاف الدكتور حسن حي.

أخذ نفسًا.

– الدكتور حسن كان قافل الباب من جوّه. الترباس مقفول، والمفتاح في القفل. ماحدش دخل ولا خرج. صح؟ – نظر إلى الرائد عصام – لكن

عند عنق الترباس، لقيت خيط نايلون رفيع، ملفوف لفة، من نوع خيط صيد. حد دخل بعد ما الدكتور حسن نام، وعلّقه، وخرج، ولفّ الخيط حوالين الترباس وسحبه من تحت الباب، فاتقفل لوحده.

سكت.

— ومين فينا بيصطاد؟

لم يتكلم أحد. وكان الصمت، في الصيدلية القديمة المغلقة، ثقيلًا كصخرة.

— أيمن بيصطاد. — قال يوسف — كل خميس. من الكورنيش في شبرا الخيمة. عنده في شنطة العربية

عدّة صيد، وفيها خيط من نفس القطر والماركة. وفي الصندوق الخلفي حبل ليف نخيل زي ده، فاضل منه نص متر في كيس. وعلى قميصه الأبيض، اللي لبسه النهارده بعد ما غيّر القميص بتاع امبارح، أثر شاي بنعناع، عليه بقايا نفس المهدّئ.

ظلّ أيمن جامدًا لحظة، ثم قال، وصوته كأنه خرج من قاع بئر:

— ده كلام فاضي.

— الدكتور حسن كان ماسك دفتر — قال يوسف — مكتوب فيه كل حاجة بيشتريها وبيبيعها من سنة ألفين وأربعتاشر. وكان هيروح الأحد للوزارة، يقدّم

شهادة. فيه ٢٦ تشغيلة جاية من «مستودع الفجر»، شركتك يا أيمن. والتشغيلات دي كلها ماسورة. وهو كان عارف. وكان هيقول.

◉ صيدلية «الحياة»

الجمعة ١٣ نوفمبر · ٢:٣٠ ظهرًا

قفز أيمن من مقعده، ودفع الكرسي خلفه، ثم اندفع نحو الباب. لكن ماهر الدرديري، الذي لم يكن أحد ينتبه إليه، كان واقفًا هناك ببساطة، سيجارته غير المشتعلة بين أصابعه. اعترض طريقه بذراع واحدة، لا بعنف، بل بثقل رجل خبر الهرب كثيرًا.

— على فين يا حبيبي؟

ثم سقطت الأصفاد.

ولم يبق في الصيدلية إلا أنين الثلاجة وبكاء امرأة عجوز.

ما وجده يوسف في دفتر الدكتور حسن عبد الباقي

الدفتر: مجلّد جلدي أسود، ٤٠٠ صفحة، مكتوب بقلم حبر أزرق

المدة: ديسمبر ٢٠١٤ – نوفمبر ٢٠٢٦

الصفحة الأخيرة: «يوم الأحد: الوزارة. أقول الحقيقة مهما كان الثمن»

ملاحظة: صفحة واحدة مقطوعة عن الدفتر — شتاء ٢٠١٤

◉ أمام الصيدلية

وقف يوسف على الرصيف الحجري، تحت اللافتة الزرقاء، ينظر إلى الشارع الذي عبره طفلًا. كان المساء يقترب، وكانت الشمس تميل نحو الغرب، والترام يمرّ بجلجلته الطويلة، والخبز البلدي يملأ الهواء رائحة دافئة.

جاءت الحاجة ثريا إلى جواره، تلفّ طرحتها على رأسها، وفي يدها ورقة صغيرة مطوية، صفراء الحواف.

— الدكتور حسن حفظها اتناشر سنة — قالت بصوتٍ مبحوح — كان بيقول إنها «ذنب لازم يفضل قدام عيني».

فتحها يوسف.

كان إيصال بيع بقلم أزرق: «٢٣ ديسمبر ٢٠١٤ — علبة مضاد حيوي — ٣٨ جنيه — المشترية: عفاف سالم — شبرا». وتحته، بخط الدكتور حسن المتأنق، سطر واحد بقلم رصاص باهت:

«ما اتأكدتش. لازم أبلّغ. — تشغيلة ٤١٧، مستودع الفجر».

وعلى الورقة بقعة قديمة، دائرة صغيرة باهتة، لا يعرف إلا هو من أين جاءت: دمعة جفّت منذ سنين.

أمسك يوسف الإيصال بيد ثابتة، وطواه، ودسّه في جيب سترته. ولم يقل شيئًا.

— هتسامحه؟ — سألته ثريا.

— أنا ما أملكش أسامح. — قال يوسف — اللي كانت تسامح ماتت.

وتركها، ومشى نحو سيارة العميد وجدي، حيث كان ماهر يقلّب سيجارته غير المشتعلة بين أصابعه، ويقول، دون أن ينظر إليه:

— عملتها.

— عملت إيه؟

— ما سبتش الراجل يتقتل مرتين.

وجاء الصوت، من آخر الرأس، خافتًا، لا يتوعد ولا يغضب، يكاد يكون إعجابًا:

«ثانية. أنت لا تزال تقاوم. لكن كم ثانية ستقاوم في المرة القادمة؟»

الفصل التاسع

الخزنة

◉ شارع جانبي ضيّق — ميت غمر، الدقهلية

الجمعة ١٣ نوفمبر · ١٠:٤٥ مساءً

كانت الحقول تمتد حتى الأفق كبحرٍ أخضر داكن، وقصب السكر يعلو الرأس ويتمايل بخفيف جاف كخفيف أوراق نقدية. وعلى جانب الطريق الترابي ترعة ضيقة يلمع ماؤها الأسود، وعلى ضفتها جاموسة نائمة، وكلاب القرى تنبح من بعيد على نباح بعضها، ومن

بيوت الطوب اللبن المتناثرة تتسلل أضواء صفراء خافتة. والهواء ثقيل برائحة طين مبلل وروث وقش محروق.

ثلاث سيارات بلا أنوار تنزلق على طريق ترابي بين حقول القصب، وفي الأولى رجلٌ ينظر من النافذة إلى مبنى بعيد، كأن أحدًا يقرأ له رسالة.

كان المصنع على مبعدة مئتي متر: هيكل رمادي منخفض، فوقه لافتة صدئة: «ثلج النيل». بلا حراس، بلا أنوار، وفي الهواء رائحة مياه راكدة.

— يعني إيه يا أستاذ يوسف؟ — همس العميد وجدي — فيه حاجة؟

— فيه يا باشا. بس مش اللي إحنا جايين له.

أغمض يوسف عينيه لحظة، ثم فتحهما. رأى الأرض أمام بوابة المصنع: طين مبلّل، وفيه أثر إطارات عريضة، إطارات شاحنة تبريد من طراز ثقيل، خرجت من هنا قبل ثلاث ساعات تقريبًا متجهةً شمالًا. ورأى المبنى نفسه: ضاغطات التبريد تعمل بقدرة منخفضة لا تكفي لتجميد ثلج، بل تكفي لتبريد شيء آخر عند أربع درجات، درجة حفظ الأدوية. ورأى، على الأرض عند مجرى التصريف، بقايا شرائط ألومنيوم لامعة، من النوع الذي تُغلَّف به الأقراص.

– الشحنة مش جوّه – قال – اتنقلت من تلات ساعات. عربية تبريد كبيرة، رايحة ناحية بورسعيد.

– إنت متأكد؟

– متأكد. والمكان ده تُرك عمدًا. ده فخ، أو...

– أو إيه؟

– أو واحد من اللي هنا قال لهم.

نظر العميد وجدي في وجوه رجاله، ثم قال بصوتٍ لا يُشبه صوته:

– هندخل برضه. عايزين نعرف إيه اللي سابوه.

◉ داخل مصنع «ثلج النيل»

الجمعة ١٣ نوفمبر · ١١:٠٥ مساءً

في الداخل برد حقيقي يعضّ الوجه، وضباب أبيض خفيف يتصاعد من كتل الثلج المصفوفة على الأرضية الإسمنتية، وقطرات الماء تسقط من السقف على صفائح صدئة بإيقاع عدّاد. وعلى الجدران خطاطيف حديدية معلقة كأسنان وحش، ونشارة خشب مبللة تغطي الأرض وتلتصق بالأحذية، ورائحة سمك قديم وماء راكد تتسلل من مكانٍ ما.

تنكسر السلسلة بصوتٍ معدني جاف، ويتبعه ارتطام الباب الحديدي بالجدار. أشعة الكشافات تنزلق

على أرضيةٍ زلقة، وعلى رفوف فارغة، وعلى مصابيح معلّقة تهتزّ بلا ريح.

الكاميرا تتبع الرجال من الخلف: ستة ضباط، وماهر الدرديري بسيجارته التي لا تُشعل، ويوسف في المنتصف، يمشي كمن يسير بين أحلام الآخرين.

في عمق المبنى باب صغير خلف حاجز من ألواح الثلج، وعلى بُعد عشر خطوات منه، سلّمٌ حديديٌّ نازل. تحته غرفة صغيرة، مضاءة بمصباحٍ واحد عارٍ، وفي ركنها خزنةٌ حديدية سوداء، قديمة، ضخمة، كأنها الشيء الوحيد في المكان الذي لا يخاف أحدًا.

– هي دي – قال العميد – محتاجين فتّاح خزن. هيوصل بعد ساعة.

– مش لازم يا باشا.

نظر الجميع إلى يوسف. وكان واقفًا أمام الخزنة، وعيناه مثبّتتان عليها، لكنهما لم تكونا تنظران إلى الحديد. كانتا ترى ما وراءه.

رأى كل شيء: رزم الدولار، مربوطة بأشرطة ورقية من مصرف في دبي؛ ثلاثة جوازات سفر بأسماء لا يحملها صاحبها؛ ذاكرة رقمية صغيرة سوداء؛ ودفترًا ضخمًا مغلّفًا بجلد أسود.

ورأى الدفتر، صفحةً صفحة، وكأنه مفتوح بين يديه.

ما رآه يوسف داخل الخزنة — دفتر الأجور، صفحة ٤٧

ن. ع. — ممرضة — ١٠٠٬٠٠٠ جنيه (دفعة واحدة)

ت. ف. — شهري — ٣٥٠٬٠٠٠

ه. ش. — شهري — ١٥٠٬٠٠٠

ل. ح. — شهري منذ سبتمبر ٢٠٢٥ — ٦٠٬٠٠٠

وقف يوسف أمام الخزنة بلا حراك.

ثلاثة أحرف قرأها كثيرًا في حياته: ن. ع. هي نهى، الممرضة التي علّقت له كيس المحلول. ت. ف. هو تامر فؤاد، ابن أخي الحاجة. ه. ش. هو هشام

الشرقاوي. أما الحرفان الأخيران، ل. ح.، المرتبان شهريًّا منذ أربعة عشر شهرًا، قبل أن يحترق المعمل بكثير، قبل أن يُصاب يوسف بما أصابه، قبل أن يعرف أحدٌ أنه موجود في العالم...

فكّر في الأحرف. في الرقم. في المرأة ذات القلم.

وجاء الصوت، رقيقًا هذه المرة إلى حد الحنان:

«هذه الصفحة وحدك تعرفها. اكتمها. فكّر: من يعلم أن ل. ح. هي ليلى؟ ربما هي مجرد صدفة، ربما اسمٌ آخر. وإن كانت هي، فأنت الوحيد الذي يستطيع أن يحميها، لأنك الوحيد الذي يعرف. وإن لم تكتمها، فمن يضمن أن ينتهي الأمر بغير موتها؟»

– يوسف؟ – قال العميد – إنت كويس؟

– آه... الخزنة فيها فلوس يا باشا، وجوازات سفر، وفلاشة، ودفتر حسابات.

– ما فيش حاجة تانية؟

أحسّ يوسف بعيني الدرديري على وجهه، ثقيلتين، متعبتين، لا تطلبان إجابة، بل تتمنيانها.

– لأ يا باشا. ما فيش.

◉ غرفة الخزنة

كانت الغرفة تحت الأرض بجدران إسمنتية عارية تتصبّب رطوبة، ومصباح واحد معلّق بسلكه يتأرجح ببطء كأن أحدًا مرّ توًّا، وفي الركن الخزنة السوداء كجثة، وعلى أرضها دوائر من قطرات الماء. ورائحة اللحام تملأ الهواء، وشرارات برتقالية تتساقط من الشعلة، تضيء وجوه الرجال لحظةً ثم تختفي.

جاء فتّاح الخزن، فاحمرّ الحديد تحت اللهب، ثم انفتح الباب ببطء كمن يتنهّد.

أخرج العميد الدفتر بقفازين، وقلّب صفحاته الأولى، حتى بلغ الصفحة السابعة والأربعين. ثم توقف.

وكان لتلك الوقفة وزنٌ يعرفه كل من جلس يومًا أمام ما لا يريد أن يراه.

— ن. ع... — قرأ بصوتٍ خافت — ت. ف... ه. ش... — رفع عينيه ببطء إلى الرجل القائم بجوار الدرديري — ل. ح. ... إنت تعرف حد بالأحرف دي يا أستاذ يوسف؟

كان في الغرفة ستة رجال وصمتٌ طويل. ثم سمع يوسف نفسه يقول، بصوت هادئ إلى حد الخيانة:

— لأ يا باشا. أول مرة أشوفهم.

أغلق العميد الدفتر ببطء، ولم يُجِب. أما الدرديري فنظر إلى سيجارته الباردة، ثم أعادها إلى جيبه، ولم يقل شيئًا.

ومن بعيد، في عتمة حقول القصب، ارتفع صوت صفّارات تقترب.

كانت هذه أول كذبة يقولها يوسف سالم منذ يوم ميلاده. وقد قالها بسهولة مخيفة. ولم تكن الأخيرة.

وفي صدره صوت أمه القديم، وهي تعلّمه الوضوء على حافة حوض المطبخ: «الكذبة الصغيرة يا يوسف باب مفتوح، والكبيرة تدخل منه».

الفصل العاشر

الأمر الذي سبق الغارة

◉ أمام مصنع «ثلج النيل»
الجمعة ١٣ نوفمبر · ١٢:٣٥ صباحًا

كان الليل قد ثقل على الحقول، وصرصار واحد يصرّ بلا انقطاع في العشب، والأنوار الزرقاء تدور على اللافتة الصدئة فتحوّل كل شيء لحظةً إلى مشهد من حلم. غبار الطريق الترابي يتصاعد في أعمدة رمادية خلف السيارات، وفي الهواء رائحة عوادم ساخنة وطين مبلل وتوتر رجال لا يتكلمون.

أنوار زرقاء تقطع ظلمة الحقول وتنعكس على لافتة المصنع الصدئة، ثم تتوقف ثلاث سيارات سوداء أمام البوابة، وينزل منها ثمانية رجال بأحذية ثقيلة، وفي مقدمتهم رجلٌ أنيق، هادئ الخطوات، يحمل ورقة مطوية في يده كمن يحمل مفتاح الدنيا.

— مساء الخير يا باشا. — قال النقيب هشام الشرقاوي بابتسامة مهذّبة — معلش على الإزعاج. الأمر ده من النيابة، بنقل الاختصاص لإدارتنا.

تناول العميد وجدي الورقة، وقرأها بعينين لا تُخفيان تعبهما. ثم ناولها، وهو يتنحنح، إلى يوسف كأنه يمنحه شيئًا بلا اسم:

— شوف يا أستاذ يوسف، إنت أدرى بالورق.

أخذها يوسف، وأطرق إليها.

ورقة بيضاء ناصعة، ختم النيابة في أسفلها واضح، والتوقيع الأنيق لوكيل النيابة، والتاريخ والساعة: «الجمعة ١٣ نوفمبر، ١٠:٠٠». أي بعد منتصف الليل بعشر دقائق، قبل دخولهم المصنع بساعة. وكان هذا هو الخطأ الوحيد، لكنه كان خطأً قاتلًا.

قرأ يوسف الورقة بعينيه كما لم يقرأ شيئًا. ورأى أن الورقة طُبعت في مكتب مكيّف على طابعة ليزر من طرازٍ يستخدمه مبنى الإدارة الخاصة، وأنها خرجت من الطابعة الساعة التاسعة وعشر دقائق مساءً، قبل أن

بتحرك أحدٌ من العباسية، قبل أن يعرف أحد أن هناك مداهمة. وأن التوقيع أُلصق عليها لاحقًا، بحبر لم يجف إلا قبل ساعة.

انحنى على أذن العميد وجدي، وهمس:

— الأمر اتكتب الساعة تسعة وعشر دقايق يا باشا. قبل ما نتحرك بساعتين.

شحب وجه العميد. ثم عاد إليه لونه ببطء، وقد صار لونًا آخر، لون رجلٍ فهم أنه كان محاطًا بمن يخدعه.

— فيه حد في فريقي بلّغهم — قال بصوتٍ خافت.

— أيوه.

نظر النقيب هشام إلى يوسف نظرة طويلة، ورفع حاجبيه بتهذيب:

— الأستاذ يوسف سالم؟ حمد الله على السلامة. سمعت إنك خرجت من المستشفى مبكّر.

— الحمد لله يا حضرة النقيب. العين محتاجة ترتاح.

— فعلًا. — ابتسم — بس الشغل برضه مش بيستنى.

◉ مدخل المصنع

تدخل الكاميرا وراء النقيب ورجاله، وهم يحملون من القبو الدولارات في حقائب سوداء، ثم الجوازات، ثم الدفتر الجلدي. يمرّ هشام الشرقاوي بجانب يوسف، ويتوقف لحظة، دون أن ينظر إليه، ويقول بصوتٍ هو أقرب إلى الهمس:

— ماتقلقش. أنا ما بحبّش الدم.

ثم يمضي.

ووقف العميد وجدي يتأمل الدفتر وهو يغيب في الظلام، ثم قال لمن حوله، وفي صوته ابتسامة قاسية:

— خدوا الدفتر. بس ما خدوش اللي في دماغ الأستاذ يوسف.

◉ سيارة ماهر الدرديري — طريق المنصورة
الجمعة ١٣ نوفمبر · ١:٢٠ صباحًا

الطريق الزراعي في الثانية فجرًا: لافتات خضراء باهتة تظهر وتختفي، وشاحنات ثقيلة تمرّ كحيتان نائمة وأنوارها الحمراء تنسكب على الزجاج، ومحلات صغيرة مضاءة بمصباح وحيد تبيع الشاي لسائقين متعبين، ودخان فحم يتصاعد من فرن بعيد. ومن النوافذ المفتوحة قليلًا يتسلل طعم التراب، ومن راديو قديم يتلو قارئ بخفوت.

مصباح السيارة الأمامي يحفر نفقًا ضيقًا في الظلام. وإلى جوار ماهر، في المقعد الأمامي، يوسف صامت، وأمامه في الزجاج وجهٌ ليس وجهه.

— رحت أبص في الأرض عند البوابة وأنا خارج — قال يوسف أخيرًا — لقيت إيصال بنزين غرقان في الطين. حبره اتمحى، بس أنا قريته: محطة وقود على الكورنيش الشرقي في بورسعيد، الساعة ثمانية وتلاتة وأربعين دقيقة. العربية رايحة ميناء شرق بورسعيد. رصيف أربعة.

— وانت قريته منين؟

— من الطين.

ضحك الدرديري ضحكة قصيرة، ثم صمت. وبعد دقيقة مدّ يده إلى جيبه، وأخرج شيئًا صغيرًا أسود، وضعه في كفّ يوسف:

— خدتها وهم بيتخانقوا. فلاشة من الخزنة. هتقدر تقراها؟

— مش بقدر أقرأ اللي جواها. بس أقدر أقرأ اللي لمسها.

ثم أمسكها بين أصابعه، وأغمض عينيه، وبعد لحظة قال:

– اتنين لمسوها: واحد وضع فيها المحتوى، وواحد غير الباسورد... والاتنين بيشربوا نفس الشاي بالنعناع.

– إيه؟

– مش عارف. بس ده اللي قراته.

عاد الصمت إلى السيارة. كان الدرديري يقود بعينين على الطريق، وفي صوته نبرة غريبة حين تكلم:

– أنا ما سألتكش عن الحروف.

لم يردّ يوسف.

– عارف إنك عارفها. وعارف إنك كدبت على الباشا. – أخذ نفسًا طويلًا – أنا مش هسألك. بس

هقولك حاجة واحدة: اللي بيكدب عشان يحمي، بيبقى بيحمي الكذبة مش الإنسان.

– ولو كان الإنسان يستاهل؟

– ساعتها مش بيحتاج كدبة.

نظر يوسف من النافذة. رأى الحقول، والمصابيح البعيدة، والظلام الذي لا يُجيب. وقال، دون أن يلتفت:

– أنا مش متأكد من حاجة يا أستاذ ماهر. ده اللي بخاف منه. أول مرة في حياتي مش عارف.

السلّم المؤدي إلى الشقة معتم، ودرجاته الخشبية تئنّ تحت الحذاء، ومصباح المدخل محروق منذ أسبوع. وعلى الباب خدش حديث حول القفل لم يكن هناك صباحًا، وفي الهواء رائحة خزامى أنثوية خفيفة تميّزها الأنف كأنها أثر خطوة.

لم يكن في الشقة ضوء. وكانت الباب غير مُغلق بالمفتاح.

وقف يوسف على العتبة، وعيناه تعتادان العتمة. رأى الأريكة، والكتب، والنافذة المفتوحة قليلًا،

ورائحة عطرٍ يعرفه. ثم رأى الظلّ جالسًا على الأريكة، لا يتحرك، يُشبه امرأةً أو صورة امرأة.

— ليلى؟

أضاءت مصباح الطاولة بإصبعها.

كانت جالسة منكمشة على نفسها، وعيناها حمراوان من بكاءٍ قديم، وشعرها المرفوع بدبوس بسيط قد انفلت منه خيط. وكانت هذه أول مرة يرى فيها على وجهها شيئًا غير متقن: خيطًا طالعًا، دمعةً لم تُمسح، يدًا ترتعش. أول فوضى حقيقية في عالم من النظافة المفتعلة.

لم يجد يوسف ما يقوله. وكان قلبه، الذي ظنّ أنه تعلّم ألّا يُخدع، يخفق بما لا يعرف أن يسمّيه.

– كنت مستنياك – قالت بصوت أجشّ – ودخلت من غير إذن. أنا آسفة.

– إزاي دخلتي؟

– ده اللي أنا بعرف أعمله. – ابتسمت ابتسامة منكسرة – يوسف... أنا عارفة إنك شفت الدفتر.

تجمّد الدم في عروقه.

لم يكن في الدنيا من يعلم أنه رأى الدفتر، غير الدرديري والعميد وجدي، وغير من أخبرها.

الفصل الحادي عشر

جاسوسة داخل جاسوس

◉ شقة يوسف سالم — شبرا

الجمعة ١٣ نوفمبر · ٠٣:٥٠ فجرًا

كانت الشقة صغيرة ومرتبة بتقشّف من لم يعتد أن يستقبل أحدًا: أريكة بنية قديمة، ومكتبة خشبية ثقيلة امتلأت بكتب الهندسة والمواد، وستائر رمادية يتسلل بينها خطّ ضوء أصفر من مصباح الشارع فيقسم الغرفة إلى نصفين. وعلى الجدار ساعة بطيئة، وفي المطبخ حنفية تقطر كل ثلاث ثوانٍ، وصوت بعيد لقطار ينقل ما لا

يحتاج أحد إلى معرفته. وفي نهاية الصالة باب خشبي مغلق، خلفه غرفة لم يفتحها أحد منذ ربيع قبل عامين: غرفة أمه.

أغلق يوسف الباب خلفه ببطء، وبقي واقفًا عند العتبة. لم يقترب منها، ولم يبتعد. كان بينهما أربع خطوات ومصباحٌ صغير، وكل خطوة منها أثقل من العمر.

— عرفتي منين؟ — سأل بصوت منخفض.

— مش من حد بلّغني.

— يبقى منين؟

ضمّت ليلى ركبتيها إلى صدرها، كطفلة تُخبّئ شيئًا في حجرها.

— الأول، اسمعني من غير ما تقرأني.

— مش بحاول.

— بتحاول. وأنا ما أقدرش أمنعك. — ابتسمت ابتسامة هشّة — بس اسمعني.

وسكتت دقيقة كاملة. كان في الصمت ما يكفي لتخرج الدنيا كلها من الغرفة.

— «ل. ح.» اللي في الدفتر... أنا.

مرّ الاسم في صدره كما يمرّ الحديد في الجسد. لم يُظهر شيئًا، لكنه رأى يده على المقبض تبيضّ من قوّة القبضة.

— من أربعة عشر شهر اتجنّدت. مش من الدكتور شريف، لأ... من ناس تانيين. ناس مهمتهم يراقبوا الدكتور شريف. بس الفلوس — وأشارت إلى فمها كمن يُشير إلى مرارة — الفلوس كانت بتيجي من حسابه، علشان أبقى جزء من «العمل» عنده. جاسوسة جوّه جاسوس، فاهم؟

— وأنا؟ — قال، وصوته غريب عليه — أنا دخلت فين من ده؟

– إنت ما كنتش داخل في حاجة. أنا اتحطّيت على المعمل علشان أعرف مين هيفحص العيّنة اللي هتيجي. كانوا عارفين إن حاجة هتجي. ومش عارفين مين هيستلمها. – رفعت عينيها إليه – لما عرفت إن الاسم يوسف سالم، ما كنتش أعرفك. ما كنتش أعرف إن في الدنيا حد بالطيبة دي.

نظر إليها بعين لا تعرف الرحمة ولا تعرف الخطأ.

ورأى. كانت يداها تروي قصةً أخرى تحت قصتها: على سترتها خيوط من ورق ختم قديم، ورائحة مكتب لا مطبخ. وفي حذائها طين أحمر من طريق الواحات، نفس الطين الذي رآه على حذاء النقيب وعلى حذاء

ماهر. وفي حقيبتها شريحتان بدل شريحة. وكلمتان في ما قالته لم تصدقا: «ما كنتش أعرف إنهم هيحاولوا يقتلوك».

لم يقل شيئًا. لم يكن يريد أن يرى الكذبة وهي تخرج من فم امرأة يحبها.

— وعرفتي إني شفت الدفتر منين؟

— من العربية.

— عربية إيه؟

— عربية ماهر. — نظرت إلى النافذة — فيها جهاز تنصّت. مش بتاعي. بتاع الدكتور شريف. بقاله شهر.

كل اللي اتقال فيها بيوصله في ثواني.

كان في الدنيا كلها لحظةٌ واحدة صمتت فيها كل الأشياء: الساعة، والريح، وأنفاس رجلٍ يفهم فجأة أن الذي سمعه الأعداء هو نفسه الذي قاله بصوته.

رصيف أربعة. ميناء شرق بورسعيد. الفلاشة. الدفتر. والكذبة.

— يبقى هو عارف...

— هو عارف إنكم عارفين. وهيحرّك الشحنة قبل الفجر.

الغرفة مكتب واسع مكسوّ بالخشب الداكن، وجلد أسود يلمع على المقاعد، لا يضيئها إلا توهج شاشة واحدة بلون أزرق بارد، وفي الهواء رائحة سيجار قديم وقهوة وعطر غالٍ. وفي الركن تمثال برونزي لحصان في حالة وثوب، وعلى المكتب ساعة ذهبية تدقّ بصوت لا يسمعه إلا من يريد أن يسمع.

غرفة مكتب مظلمة إلا من شاشة واحدة. على الشاشة موجة صوتية تتحرك نحطّ ضعيف. والدكتور شريف الصباغ، بروب ثقيل وفنجان قهوة، يستمع بابتسامة رجلٍ يتذوّق فاكهة نادرة.

«...ميناء شرق بورسعيد. رصيف أربعة...»

يضغط زرًا. يتوقف الصوت.

– حرّكوا الشحنة – يقول لمن لا يُرى – على رصيف سبعة. وسيبوا حد يتفرّج على رصيف أربعة.

ثم يضع الفنجان على الطاولة، وهو يبتسم لأن ما سمعه كان أحلى مما توقّع: أن واحدًا ممن يطاردونه يُحبّ، وأن من يُحبّ يكذب.

◉ شقة يوسف سالم

– ليه جيتيلي؟ – سأل يوسف – إنتي ممكن كنتي تسيبيني أغلط وأقع.

– ما كنتش عايزة.

– ليه؟

– علشان إنت الوحيد... – توقفت. وفي صوتها شيء مرتعش لا يُصطنع – الوحيد اللي ما قالش لي مرة واحدة إني حلوة. قالّي إني أخطر من اللازم. وساعتها عرفت إنك بتشوف.

ابتسم رغمًا عنه، وتنهّد:

— وبعد ما جيتي؟ هتعملي إيه؟

— أمشي. وإنت تقرّر تصدّقني ولا لأ.

قامت، وأخذت حقيبتها، وسارت إلى الباب، وفي كل خطوة بدا كأن الأرض تُطيل المسافة بينهما. وحين مدّت يدها إلى المقبض، قال:

— ليلى.

التفتت.

— ما حدش هيعرف إنك كنتي هنا. — ثم، بعد لحظة — وما تقوليش لحد إنك قلتيلي.

أومأت. ولم تقل «شكرًا»، فقد كانت تعرف أن الكلمة ستكون أثقل مما يطيق.

وحين أُغلق الباب خلفها، جلس يوسف على الأريكة التي ما زالت دافئة، وفتح هاتفه، وكتب رسالة قصيرة إلى ماهر الدرديري:

«العربية فيها ودن. ما تقولش حاجة جوّاها. وتعالى بسرعة».

وفي رأسه، همس الصوت، ناعمًا كاعتذار:

«أنت لم تصدّقها. لم تُكذّبها. وتركتها تمشي، وهي ما زالت تعرف ما تعرف. هل بدأتَ تلعب لعبتهم يا

يوسف؟ تستعمل من تحب؟»

ولم يردّ. كان قد عرف الجواب، وكان الجواب أنه فعل.

الجزء الثالث

الحبّ والخديعة

امرأةٌ لا تقرؤها عيناه، وقلبٌ لا يُخدع إلا حين يحب

الفصل الثاني عشر

الكذبتان

◉ مقهى شعبي — بولاق أبو العلا

الجمعة ١٣ نوفمبر · ٠٩:٣٠ صباحًا

المقهى من تلك المقاهي التي لا تتغير: كراسٍ خشبية متآكلة الحواف، وطاولات معدنية عليها مفارش بلاستيكية مرسومة بالأزهار، وأكواب شاي زجاجية في صواني نحاسية، وأصوات طاولة النرد تتساقط في الهواء كحبات المطر. ودخان الشيشة يتصاعد في كتل زرقاء ثقيلة، وراديو قديم يذيع نشرة الصباح بصوت

مبحوح. وعلى الحائط صورة باهتة لمشجّع كرة قدم رحل منذ عقود، وفوقها لافتة: «الدفع مقدّمًا».

جلس الرجلان على طاولة معدنية قرب الحائط، وقد أطفأ كل منهما هاتفه وأخرج بطاريته، كما يفعل من ثبت له أن الجدران ذات آذان. وضع النادل أمامهما كوبين من الشاي بالنعناع، فنظر ماهر الدرديري إلى كوبه وقال:

— الشاي ده ما فيهوش حاجة غير شاي. أنا اتأكدت. — ثم رفع عينيه — خلّينا نتكلم.

— العربية فيها جهاز تنصّت. ودن واحدة؟

— ودنين. واحدة في الكونسول وواحدة تحت الكرسي. قعدت ساعة بدوّر لحد ما لقيتهم. — ابتسم ابتسامة رجلٍ يُتقن الهزيمة — الدكتور شريف كان بيسمعني وأنا بقعد معاك تلات ليالي. مفيش كلمة قلتها بصوت عالي غير اللي أنا عايزه يسمعها.

— وإيه اللي عايزينه يسمعه؟

— الكدب. — قال الدرديري ببساطة — الكدبة زي الحبر السرّي يا يوسف: بتبان في الحاجة اللي بتتحرك بعدها. هنقول كدبتين مختلفتين، كل واحدة لواحد. واللي الدكتور شريف يتحرك ناحيته، هنعرف مين اللي بلّغه.

وضع كوبه على الطاولة وتابع:

– كدبة في العربية: «الأحد الفجر، مخزن جديد في دمياط». وكدبة تانية لحد تاني، حد واحد بس: «الأحد الفجر، مخزن في السويس».

لم يحتج يوسف إلى أن يسأل: لحد مين.

– لا – قال بصوت مخنوق.

– إنت كدبت على العميد من غير ما تتردد عشانها.

– قالها الدرديري دون قسوة – يبقى كدبة صغيرة تانية عشان نعرف الحقيقة... مش كتير.

نظر يوسف إلى كوب الشاي الذي يرتجف قليلًا في يده. كان يعرف أن الرجل محق، وكان يكره أنه محق.

— اتفقنا.

◉ داخل سيارة ماهر — كورنيش المعادي

الجمعة ١١:٠٠ صباحًا

تنزلق السيارة على الكورنيش، والنيل إلى يمينها يلمع كمعدنٍ مصهور. وفي المقعدين رجلان يتحدثان بأصواتٍ مرتفعة قليلًا عما يعرفان أنه سيُسمع.

— بصراحة يا يوسف، أنا مش مرتاح لموضوع الأحد ده — يقول ماهر بنبرة أداءٍ مسرحي لا تنطلي على

طفل – الدكتور شريف ذكي. مش هيسيب شحنة زي دي من غير حراسة.

– هتبقى في دمياط يا أستاذ ماهر. المخزن الجديد، ورا الميناء الصغير. الأحد الفجر الساعة تلاتة. العميد وجدي هيدخل بنفسه.

– وانت متأكد؟

– متأكد. قريتها من الورق.

يخفض ماهر الصوت قليلًا، ويقول، وعيناه على الطريق، بحروف لا تتحرك فيها الشفاه:

– إنت ممثل فاشل. بس هو مش هيلاحظ.

— وإنت ممثل أفشل.

يضحك الاثنان، ضحكة قصيرة، تحت أنقاض الأمل.

◉ كورنيش النيل — أمام كوبري قصر النيل

الجمعة ١٣ نوفمبر · ٠٦:٣٠ مساءً

عند مدخل الكوبري يجثم أسدان من البرونز، صُنعا في أوروبا في سبعينيات القرن التاسع عشر، وعلى جسد كل منهما صدأ أخضر جميل كنبات متسلق، وفي مخلب أحدهما حفرة صغيرة من رصاصة قديمة لم يلتفت إليها أحد. وقف يوسف عند قدميهما لحظة، وقرأ البرونز: نحاس وقصدير سُكبا في قالب رملي في مسبك أوروبي،

وخرجت أولى أنفاسه إلى الدنيا في غبار الفحم. وفوق الكوبري كانت أضواء السيارات تجري نكرز ذهبي على خيط.

غروب القاهرة لحظة لا تُشبه غروبًا آخر: الشمس تنزل ببطء خلف أبراج الجيزة، فتصبغ النيل بلون نحاسي يُشبه لون الذاكرة، وتقف على الكورنيش أضواء وبائعو ذرة ومراكب صغيرة ملوّنة تنتظر عشّاقها.

كانت ليلى تنتظره عند السور، وفي يدها وردة ياسمين اشترتها من بائع عجوز. حين رأته ابتسمت ابتسامة لم تكن متقنة، ولا كاملة، كانت ابتسامة امرأة لا تعرف ماذا تفعل بفرحتها.

– فاكرة اللي قلتيه إني بشوف؟ – قال وهو يقترب

– إنتي عارفة بشوف إيه فيكي؟

– بتشوف إني كدّابة.

– لأ. بشوف إن فيكي شيء بتخبّيه من نفسك قبل ما تخبّيه مني.

تنهّدت، ونظرت إلى الماء. سكتا. ثم أخذ يوسف الوردة من يدها، وقرّبها من عينيه. ورأى في بتلاتها ما لم يُرَ لعين من قبل: الشمس التي سقتها قبل يومين، والتربة التي تنفّست فيها، واليد التي قطفتها فجرًا، يدًا عجوزًا فلاحيّة تعرف أن الزهرة لا تحب الماء الكثير. ثم أعادها إليها وقال:

— الدنيا حلوة جدًا يا ليلى. ما كنتش أعرف. ما حدش يعرف.

ضحكت، وفي ضحكتها ارتجاف.

— إنت بتتكلم كأنك أول مرة تشوف.

— أنا فعلًا أول مرة.

◉ نفس المكان

بعد ساعة · ٧:٣٠ مساءً

وكان عليه أن يقولها. كان قد أعدّ الجملة طوال الطريق، وكان كلما أعادها شعر بشيء يتمزّق.

— ليلى... أنا عايز أقولك حاجة. ما تقوليهاش لأي حد.

— مين هسمعها؟

— الأحد الفجر. العميد وجدي هيداهم مخزن في السويس. على طريق العين السخنة. الساعة تلاتة.

نظرت إليه نظرة طويلة. لم يرَ في عينيها شيئًا: لا اضطرابًا ولا فرحًا ولا شكًّا. نظرة امرأة تحاول أن تتذكر كلمة.

— لحد مين هتقولها؟ — سألت أخيرًا.

— لحد.

— وليه قلتهالي؟

— علشان أثق فيكي.

أغمضت عينيها لحظة، ثم قالت، ببطء:

— وعد.

وفي رأسه همس الصوت، حزينًا هذه المرة، لا شامتًا: «قلتَ لها لتثق بها، أم لتعرف إن كانت تستحق؟ وإن كنتَ لا تعرف الجواب، فمن بين الاثنين أنت الكاذب؟»

أمسك يدها. كانت باردة. وكان يعرف من يدها، بعينه التي لا تُغمض، أنها لا تكذب في شيء واحد على

الأقل: أنها تخافه أكثر مما يخافها.

◉ فيلا التجمع الخامس

الجمعة ١٣ نوفمبر · ١١:٣٠ مساءً

الغرفة المظلمة نفسها. الشاشة نفسها. الدكتور شريف الصباغ في مقعده، وإلى جانبه رجل ضخم اسمه سلطان، بعنق أعرض من رأسه، يقف كحائطٍ بلا نوافذ.

— الكلام اللي في العربية، يا دكتور — يقول سلطان — بيقول: دمياط. المخزن الجديد ورا الميناء. الأحد تلاتة الفجر.

– كويس. – يومئ الدكتور شريف – حطّوا اتنين رجّالة في دمياط. وسيبوهم يتفرّجوا.

– وغير كده؟

يقلّب الدكتور شريف ملعقة في فنجان القهوة ببطء، ويتأمل الدوامة الصغيرة.

– وحطّوا أربعة في السويس. على طريق العين السخنة.

– السويس؟ – ينظر سلطان إليه بدهشة – مفيش حاجة في العربية عن السويس يا دكتور.

– أعرف.

– طب...

– عشان في حد قالّي «السويس» – يقول الدكتور شريف، وابتسامته أخفّ من الهواء – من غير ما أسأله.

ويرفع الفنجان إلى شفتيه.

الفصل الثالث عشر

السويس

◉ طريق العين السخنة — الكيلو ٤٣

السبت ١٤ نوفمبر · ٠٣:٣٠ فجرًا

الصحراء قبل الفجر لوحة بلا لون: رمل بلون الرماد، وهضاب منخفضة تتكوّم كظهور حيوانات نائمة، وسماء سوداء مثقوبة بنجوم باردة قليلة. والريح تحمل حبيبات رمل دقيقة تلسع الوجه، وفي البعد تلمع أضواء ضعيفة لمصنع لا يعمل، وتحت الشاحنة تتنفس الأرض برودة الليل.

شاحنة صغيرة قديمة، استعارها ماهر من صديق في السويس، متوقفة في ظلّ هضبة رملية، وأنوارها مطفأة. ومن نافذتها يتصاعد دخان سيجارة غير مشتعلة، لا يراه أحد غير صاحبها.

على بعد ستمئة متر، عند مفترق ترابي، مخزن حديدي قديم تحرسه سيارتان بيضاوان بلا أضواء. وكان ماهر يتأمل المكان بمنظار صغير، بينما يتأمل يوسف المكان نفسه بلا منظار ولا ضوء، لأن عينيه كانتا قد تجاوزتا المنظار منذ أيام.

— أربعة رجال — قال يوسف بصوت بارد — اتنين في كل عربية. السيارتين مؤجّرتين من شركة في

التجمع، نفس الشركة اللي بتأجّر لسلطان. التراب على العجل أحمر، من الطريق الدائري الشرقي. السجاير ماركة واحدة. وفي الدرج قدام الراجل اللي على اليمين، مسدس وعلبة رصاص.

— يعني جايين مجهّزين.

— جايين ينتظرونا.

ولم يزد.

أخرج ماهر هاتفه بعد تركيب بطاريته، واتصل برقم واحد، وتحدث بصوت منخفض لدقيقتين. وحين أغلق الخط قال:

– صاحبي في دمياط. بيقول اتنين رجّالة قاعدين قدام المخزن الجديد ورا الميناء. من آخر الليل. مش بيعملوا حاجة. قاعدين كأنهم بيستنوا ميعاد.

صمتا.

كل كذبة وجدت صداها. كل مكان قيل فيه اسمٌ وُضع فيه رجال. دمياط في العربية، والسويس في أذن ليلى.

وكانت السويس هي التي انكشفت.

◉ داخل الشاحنة

لم يتكلم أحد وقتًا طويلًا. كانت الشمس بعيدة، والصحراء تتنفس عتمتها، وفي الأفق خطّ باهت يرتفع شيئًا فشيئًا.

تعجّب يوسف في تلك الدقائق من أمرٍ واحد: أن العين التي ترى كل شيء لم ترَ هذا. لم يرَ في ليلى كذبةً قط. رأى فيها اتساقًا مخيفًا، ورأى فيها فوضى حقيقية في ليلة واحدة، ثم رأى فيها وردة ياسمين. ولم يرَ الخيانة لأنه لم يكن يريد أن يراها، وهذا ما لم تعلّمه إياه هبته: أن العين تُخدع بما تشتهيه، حتى لو رأت كل شيء.

— تحب أكلّمها أنا؟ — قال ماهر بحذر.

— لا.

— تحب تعمل إيه؟

— مش عارف.

قالها بصدق، وكانت الكلمة الأوحش التي نطق بها في حياته.

ومن بعيد ارتفع الأذان، وارتجف الهواء به كأنه يتلقاه. أغمض يوسف عينيه، وأصغى.

◉ شقة يوسف سالم — شبرا

ضوء الصباح الشاحب يتسلل من بين الستائر الرمادية، ويلقي على الأريكة خطوطًا باهتة. الفنجان أمامه بارد منذ ساعتين، وعلى الجدار ظلال أغصان شجرة لا يعرف أحد اسمها. وفي الشارع صياح بائع خبز، وعربة نقل مياه تمرّ، وجارة تنفض سجادة من الشرفة.

جلس على الأريكة نفسها، ونظر إلى مكان الوردة التي أخذها منها ثم أعادها. لم يكن في الشقة شيء يعرف الجواب.

وجاء الصوت، ولم يكن رقيقًا هذه المرة، ولا حنونًا، ولا شامتًا. كان جادًّا:

«اذهب إليها. أنت تعرف أين تسكن، وتعرف كيف تقرأ باب شقتها وأقفالها وما وراءها. لن تكسر شيئًا ولن تدخل. ستنظر فقط. ثم تعرف كل شيء، وتعاقبها بأن تتركها تعرف أنك عرفت».

– لأ – قال يوسف بصوت مسموع – أنا مش هعمل كده.

«لماذا؟ لأن الأمر محرّم أم لأنك تخاف أن تعرف؟»

لم يجب. فقد كان الصوت يكسب في هذه الجولة بلا قتال. ليس لأنه مُقنع، بل لأن الحقيقة، حين تقال بلا شماتة، تكون أثقل ما يحمله إنسان.

ثم رنّ الهاتف.

كان الاسم على الشاشة: «ليلى».

حدّق في الاسم ثلاث رنات كاملة، ثم أجاب:

– ألو.

– صباح الخير... – كان في صوتها نعاس وتعب، وشيء آخر لم يعرف أن يسمّيه – إنت صاحي؟

– صاحي.

– كنت عايزة أسمع صوتك.

سكتت لحظة، ثم قالت بصوتٍ مختلف، فيه ما يشبه الذعر المكتوم:

— يوسف... لو حصل حاجة يوم الأحد... ماتروحش بنفسك. أرجوك.

— ليه؟

— علشان... — توقّفت — علشان بخاف عليك.

لم يتكلم.

— وعد؟

— هبقى كويس — قال بهدوء.

— مش ده اللي سألتك عليه.

— وعد.

أُغلق الخط. ووضع الهاتف على الأريكة. وجلس يحدّق في الجدار.

وفهم، دفعةً واحدة، ما يُشبه طعنةً ودواءً في جرعة واحدة: أنها خانته، وأنها أنقذته. أبلغت عن السويس، وحذّرته من السويس. وضعت عنقه تحت السكين بيد، وأمسكت بيده باليد الأخرى.

ولم يكن في الدنيا قلبٌ يتسع لهذا إلا قلب امرأةٍ ممزقة بين من يدفع لها ومن تريد.

◉ غرفة بلا نوافذ — مكان مجهول

السبت ١٤ نوفمبر · ٠٨:٠٠ صباحًا

غرفة رمادية، جدرانها بلا صور. على الطاولة جهاز تسجيل صغير يدور، وصوت ليلى يخرج منه خافتًا، مُنهكًا:

«...وعد؟»

«...وعد».

ينقطع التسجيل.

يتحرك رجلٌ في مقعده، لا يظهر منه إلا يد على ذراع الكرسي: يد كبيرة، أنيقة، فيها خاتم قديم من

فضة.

— ممتاز — يقول صوت بارد، هادئ، رخيم بغير غرور — اجعلها تبقى قريبة منه. هو يقترب.

ثم يغلق الجهاز بإصبع واحد.

وليست في الغرفة نافذة. لكن الرجل يحدّق، من مكانه، كأنه يتأمل أفقًا بعيدًا لا يراه أحد غيره.

الفصل الرابع عشر

رصيف سبعة

◉ ميناء شرق بورسعيد — رصيف ٤

السبت ١٤ نوفمبر · ١١:٠٠ صباحًا

رافعات صفراء عملا قة تنحني فوق حاويات ملوّنة كأنها أ صابع ح ديدية ت لتقط أ لعابًا، و صياح ا لعمّال وأصوات السلاسل وضجيج الموج تتقاطع في الهواء المالح. وبين الزحام رجلان بسترتين زرقاوين ووثيقة دخول في جيب أحدهما، يمشيان ببطء كمن لا يبحث عن شيء.

عند رصيف أربعة، قرب سور حديدي، جلس رجلان على كرسيين بلاستيكيين يتصنّعان الكسل، وبينهما فنجانان من الشاي. وكان يوسف يمرّ أمامهما دون أن ينظر.

وكان على الحاويات المرصوصة حوله لغة كاملة لا يقرؤها إلا مثله: رموز المالكين، ومحطات الإبحار، وصدأ الملح الذي يأكل الحديد بوتيرة تختلف باختلاف سنة الصنع. حاوية حمراء من ميناء في فيتنام، رحلتها ثلاثة وأربعون يومًا، وفي سقفها أثر قطرات مطر من بحر العرب. وأخرى زرقاء مرّت بمضيق ملقا، وعلى بابها

بصمة بحّارٍ فلبيني. وكان صدى هذه اللغة يعلو في رأسه كسوقٍ قديم.

— هم دول؟ — سأل ماهر بلا حركة شفاه.

— هم. عيونهم على المدخل مش على الشاي. واحد فيهم بيلمس جيب سترته كل دقيقة، فيه جهاز اتصال.

— طب والشحنة؟

توقف يوسف، وانحنى كمن يربط حذاءه، ونظر إلى الأسفلت.

لم يكن الأسفلت أسفلت. كان كتابًا مفتوحًا بحروف من إطارات. إطارات شاحنة تبريد ثقيلة، ذات نقش عريض متآكل في الجهة اليمنى، وصلت إلى هنا قبل ثلاثين ساعة، ثم استدارت بحدة عند منتصف الرصيف، وانعطفت يسارًا نحو الأرصفة البعيدة. على بُعد مئتي متر. ووقفت هناك.

رصيف سبعة.

— مش هنا — قال يوسف — الشحنة اتحركت الجمعة الفجر. الساعة أربعة وخمسين دقيقة. إلى رصيف سبعة. اللي هنا مجرد ستارة.

— وحاجة تثبت؟

— عندي كل حاجة. إطار الشاحنة نفسه سابله علامة زيت على الحاجز.

◉ مسجد صغير قرب الميناء

السبت ١٤ نوفمبر · ٠٤:٤٥ مساءً

مئذنة بيضاء متواضعة بين مخازن حديد، وصوت أذان المغرب ينساب فوق الأسطح، دافئًا كأنه يسقط من سماء قريبة. وقف يوسف في الصف الأخير من المصلين، رجل بين عمّال وصيّادين وحمّالين، وركع حين ركعوا.

وكان ما يراه، في حضرة الله، مختلفًا عن كل ما رآه في حياته.

رأى بلاط المسجد وقد مسّته جباهٌ ألف سنة، وسجّادة قديمة نُسجت في الفيوم قبل عشرين عامًا وغُسلت بدموع لم يعرفها أحد، ورأى يد الإمام وفيها ارتجاف خفيف، لا من الخوف بل من الشيخوخة والخشوع. وكان كل ذلك، فجأةً، أبسط وأطهر من كل ما رآه في أسبوعه الأخير: الزجاج المزوّر، والأوراق الكاذبة، والدفاتر والأقنعة والنقود.

سجد، وأحسّ بالأرض تحت جبهته كأنها قلب كبير يخفق، وقال بصوتٍ لا يسمعه أحد:

— اللهم إني أعوذ بك من نفسي.

لم يزد. ولم يطلب شيئًا آخر، فقد عرف أن ما يخافه ليس الأعداء.

وفي رأسه همس الصوت، هذه المرة بلا حرارة، كأنه يُجاور لا يُحاور:

«الدعاء لا يمحو ما ستفعله الليلة. أنت ذاهب لتكذب على امرأة تحبك، باسم الحق».

فأجاب يوسف في سجوده، كمن يُجيب نفسه لا غيره:

— وأنا عارف. وعارف إن الطريق ده مش نضيف. بس الأربعين اللي ماتوا مش هيرجعوا لو أنا فضلت

نضيف.

ثم رفع رأسه من السجود. وكان الإمام يسلّم عن يمينه.

◉ مكتب العميد وجدي عبد الصبور — العباسية

السبت ١٤ نوفمبر · ٠٧:٣٠ مساءً

عاد الليل إلى المكتب القديم بوجهه الآخر: المصباح النحاسي يلقي دائرة صفراء على الخريطة، والستائر الدانتيل مسحوبة، وصوت المروحة الأجش يخفت، وفي الممر طنين مكيّف بعيد. وعلى المكتب أكواب شاي باردة تحمل بصمات ثلاثة رجال.

المكتب نفسه، والشاي بالنعناع نفسه، لكن في الغرفة هذه الليلة ثلاثة رجال لا يتكلّمون إلا همسًا، وعلى المكتب خريطة كبيرة لميناء شرق بورسعيد، وقد وُضع عليها دبابيس صغيرة ملوّنة.

خطة العملية — رصيف ٧ — سري للغاية

التنفيذ: الليلة، الساعة ٢٣:٠٠

الإذن: من وكيل النيابة شخصيًا، دون المرور بأي إدارة أخرى

المعرفة بالموعد: ثلاثة أشخاص فقط (العميد، الدرديري، يوسف سالم)

التضليل: تُسرَّب إلى «القناة» أن الموعد يوم الاثنين ليلًا

— الأمر ده معايا أنا بالشخص — قال العميد وجدي، وهو يلمس الورقة كمن يلمس جرحًا —

ماحدش فاهم ولا حد عارف غيرنا. ولو الموعد خرج من هنا... يبقى واحد من التلاتة.

– يعني إنت ومعاك ماهر وأنا.

– ما تقلقش يا أستاذ يوسف – قال العميد بشيء من الحدّة – أنا ما شكّيتش فيك.

– أنا اللي شكّيت في نفسي يا باشا.

نظر إليه العميد، ثم نظر إلى الدرديري، ثم خفض عينيه إلى الخريطة. ولم يقل أحد شيئًا بعد ذلك.

كان الهاتف في يده منذ دقيقة، وكان الاسم على الشاشة، ولم يكن قد ضغط الزر بعد.

ضغطه.

— ألو... يوسف؟

— ليلى. — حاول أن يجعل صوته هادئًا، نخرج دافئًا أكثر مما ينبغي — كنت عايز أقولك إني فكّرت في كلامك الصبح. الأحد... هبعد عن الموضوع. العميد قرر يأجّل. هيدخلوا يوم الاثنين الليل، من غير ما أروح.

– الاثنين؟

– الاثنين. بس إنتي... – توقّف، وكانت الكلمات تخرج منه كما تخرج الدماء – ما حدش يعرف غيري وغيرك.

– عارفة.

– ومتأكدة؟

– يوسف... – قالت بصوتٍ تغيّر فجأة – إنت كويس؟ صوتك غريب.

– كويس. – ابتسم ابتسامة لم تصل إلى صوته – كل اللي حصل إني نمت قليل.

– طيب. خلّي بالك من نفسك.

– وإنتي.

أُغلق الخط. وبقي يوسف واقفًا أمام المرآة المعلّقة على الجدار.

كان الوجه فيها وجه رجل لا يعرفه. وجهٌ استعمل الحب كما تُستعمل الأدوات. ورأى في المرآة لأول مرة ما يراه الناس فيه: لا عينين تريان كل شيء، بل عينين تعبتين، تخافان.

«أحسنتَ» همس الصوت، ولم يكن في كلمته سخرية. وكان هذا هو الأسوأ.

◉ سيارة ليلى — كورنيش المعادي

السبت ١٤ نوفمبر · ٠٨:٥٠ مساءً

توقفت السيارة على جانب الطريق. على الشاشة المضيئة رقمان محفوظان بلا اسم. ويدها ترتجف.

تكتب للأول: «الاثنين الليل. هو مش رايح». تضغط الإرسال.

تحدّق في الشاشة. ثم تفتح محادثة الرقم الثاني، وتكتب ببطء، وتمسح، وتكتب من جديد:

«هو بيكدب. صوته كان غريب. أنا سايباه».

وتتردد، وإصبعها فوق زر الإرسال لا يتحرك.

ثم تضيف سطراً واحدًا، وتضغط الإرسال:

«الليلة».

وفي الظلام خلف الزجاج، كانت المدينة كلها تمضي بعيدًا عنها، بلا أن تعرف أن امرأة ما، في سيارة صغيرة، قد خانت اثنين لتنقذ واحدًا.

الفصل الخامس عشر

الجدار الجانبي

◉ رصيف ٧ — ميناء شرق بورسعيد

السبت ١٤ نوفمبر · ١٠:٤٥ مساءً

رافعة عملاقة تقف في الضباب كزرافة معدنية نائمة، وأنوار سفينة بعيدة تومض كنجوم منخفضة، وأمواج الليل تضرب حواجز الإسمنت بصوتٍ أجشّ، ورائحة الملح والزيت والسمك الميت تلتصق بالجلد. وعلى الرصيف الحديدي بقع زيت قديمة تعكس الأضواء

بألوان قوس قزح مشوّهة، وصدى الخطوات يتردد بين صفوف الحاويات كأنها كهفٌ كبير.

ضباب خفيف يزحف من البحر، يلفّ الرافعات بغلالة بيضاء، ويحوّل أضواء الميناء إلى هالات صفراء باهتة. وعلى رصيفٍ مهجور، بين صفوف الحاويات الصامتة، تسير سبع سيارات بلا أنوار، ويهبط منها اثنا عشر رجلًا بأحذية لا تُحدث صوتًا.

في المقدمة امرأة في أوائل الأربعينات، قصيرة الشعر، ترتدي معطفًا داكنًا وتحمل ملفًا رفيعًا كأنه سيف. وكيلة النيابة سلمى فاروق. وإلى جانبها العميد

وجدي، وخلفهما ماهر الدرديري بسيجارته التي لا تُشعل، ثم يوسف.

— الإذن معايا أنا بإيدي — قالت سلمى بصوتٍ هادئ حاد — ومحدش يتصل بحد، ولا حد يتحرك قبل ما أقول.

وقف يوسف على بعد ستين مترًا من حاوية زرقاء باهتة، عليها رقم نصف ممحو، وفي سقفها وحدة تبريد صغيرة تئنّ بصوتٍ خافت. لم يقترب. أغمض عينيه لحظة، ثم فتحهما.

وقال:

— ماحدش يلمس الباب.

التفت الجميع.

— وراء الباب، على الحافة اليمنى، شريط نحاسي رفيع متوصّل بعبوة حارقة. مضبوطة على لحظة فتح الباب. لو اتفتح من غير ما نقطع التيار عنها، الحاوية كلها هتولّع في تلات ثواني... وكل اللي فيها.

— عبوة حارقة؟ — قال العميد.

— «ماس كهربائي» — قال ماهر ببرود مرّ — برضه.

ضحك أحد الضباط بلا مرح، ثم سكت.

— وإيه الحل؟ — سألت سلمى.

— مفيش حل بالباب. — مدّ يوسف يده يشير إلى جانب الحاوية — من هنا. اقطعوا الجدار الجانبي عند اللحام التالت. بعيد عن السلك بخمسين سنتي. وبرفق.

◉ أمام الحاوية

الأحد ١٥ نوفمبر · ١٢:٠٥ صباحًا

شرارات زرقاء تتطاير من آلة قطع، وصرير معدني يمزّق صمت الميناء. وحين انفتح الجدار الجانبي أخيرًا مثل جرحٍ طويل، خرج منه هواء بارد برائحة كرتون ورطوبة وشيء آخر، حلو مرّ، رائحة الدواء الذي لا بشفي.

دخل يوسف أولًا.

على الأرضية رفوف حديدية، وعلى الرفوف كراتين بيضاء مرتبة بعناية، كل منها مختوم بشريط ذهبي. وعلى جانب كل كرتونة، بحبر أسود صغير، الحرفان اللذان أصبحا يعرفان في رأسه كاسمٍ للموت: «SG-7».

لمس أول كرتونة، وأغمض عينيه.

وفي لحظات انسابت أمامه طبقات الكرتونة كأنها شاشة: الورق من لبّ شجر من فنلندا، عولج في مصنع بالعاشر من رمضان، ومطبوع على ماكينة ألمانية قديمة تُسرّب حبرًا زائدًا عند حافتها اليمنى. والشريط الذهبي لاصق مستورد من الصين بنسبة صمغ أقل من

المطلوب، وعليه بصمات ثلاثين عاملًا، كلهم بقفازات رقيقة، إلا واحدًا ترك حرارة يده.

فجاءه كل شيء: مصنع في الصحراء، تحت الأرض، طينه أحمر يعرفه، عمّال يعملون في ثلاث ورديات بلا نوافذ، ماكينات تعبئة أُدخلت من مرفأ غير رسمي، وأيدٍ كثيرة لمست هذه الكراتين، أيدٍ عمّال، وأيدٍ سائقين، وأيدٍ وقحة، وفي زاوية الكرتونة، على الحافة السفلى حيث لا يرى أحد، أثر ضغطة خفيفة لخاتم.

خاتم فضة قديم، ثقيل، حُفر عليه حرفٌ واحد من أبجدية عربية قديمة: «ج».

فتح عينيه، وكانت يد ماهر الدرديري قد استقرت على كتفه.

— لقيت إيه؟

— خاتم فضة. عليه حرف الجيم.

تجمّد ماهر. لم يكن جمودًا يُرى، بل شيء يشبه سكونًا مفاجئًا في رجلٍ لا يسكن. ثم قال بصوتٍ لم يكن صوته:

— خاتم زي ده... كان عند حد زميل في الوزارة. اتفصل معايا.

— مين؟

— مش متأكد — قال سريعًا — ما تقولش حاجة دلوقتي.

◉ داخل الحاوية

الأحد ١٥ نوفمبر · ١٢:٣٠ صباحًا

وقف يوسف في منتصف الحاوية، ونظر حوله ببطء. وكانت عيناه، قبل أن تنتبه الأذنان، تُحصيان: الرفوف، والكراتين، والمسافات الفارغة التي تركتها رفوف أُفرغت.

واحد. عشرة. مئة.

ألف وثمانمئة كرتونة.

وفكّر في الدكتور شريف وهو يقشّر بيضته: «مليون علبة».

بيان الضبط — رصيف ٧

المضبوطات: ١٬٨٠٠ كرتونة (٤٣٬٢٠٠ علبة) — صنف SG-7

المعلن في الشحنة الأصلية: ١٬٠٠٠٬٠٠٠ علبة

النسبة المضبوطة: أقل من ٤٪

— ده مش الشحنة كلها يا باشا — قال يوسف، وصوته جاف — ده قصاصة. الباقي اتحرك من أسبوع. على الأقل أسبوع.

— ازاي عرفت؟

— من الغبار. في ٢٣ مكان فاضيين على الأرض، الغبار حوالينهم لسه ناعم. اتحرّكوا قبل ما نحط إيدينا على الشحنة.

نظر العميد وجدي إلى المساحات الخاوية بوجه من أدرك للتوّ أن ما ظنه نصرًا ليس إلا اللحظة الأولى من هزيمة.

◉ مدخل الرصيف

الأحد ١٥ نوفمبر · ١٢:٤٥ صباحًا

أنوار سيارة سوداء واحدة تظهر عند طرف الرصيف، ثم تتوقف. وينزل منها رجل أنيق، هادئ الخطى، بابتسامة مهذّبة. النقيب هشام الشرقاوي.

— مساء الخير يا فندم. — قال للعميد — معلش، الأمر ده...

— الأمر ده من النيابة — قاطعته سلمى فاروق، متقدمة بخطوتين — وأنا النيابة يا حضرة النقيب. وكيلة النيابة الجزئية، ومعايا الإذن الأصلي بتوقيعي. وأي ورقة تانية بتتكتب بعد منتصف الليل بتطلع من درج مكتبك، هتتحفظ... لحد ما أقرر أنا.

وقع صمت، وكانت الريح تُحرّك طرف معطفها.

ابتسم النقيب ببطء.

– حاضر. – قال، ثم أدار عينيه نحو يوسف، ونظر إليه بتلك العينين الهادئتين اللتين تعرفان كيف تنصتان

– أستاذ يوسف... فاكر آخر مرة اتقابلنا؟ في المستشفى؟

– فاكر.

– كنت قلتلك إني ما بحبّش الدم. – اقترب خطوة – وكان فيه حد عايزك تموت قبل الجمعة. الجمعة عدّت يا أستاذ يوسف. وإنت لسه عايش. تفتكر ليه؟

ولم يجبه أحد.

وانصرف النقيب، تاركًا خلفه أثر عطر وسؤالًا.

◉ رصيف ٧

الأحد ١٥ نوفمبر · ١:٢٠ · صباحًا

جلس يوسف على حاجز حديدي مبلل، ينظر إلى البحر المظلم. وكان ماهر يبتعد قليلًا، يتحدث بصوت منخفض في هاتفه. والعميد يصدر أوامره، وسلمى فاروق تُدوّن محضرًا.

ثم اهتز هاتفه.

رقم غريب، لا يعرفه. وعلى الشاشة جملة واحدة:

«أحسنت. والآن اسأل نفسك: أين ذهب الباقي؟ ولماذا تركوك تجده؟»

الفصل السادس عشر

الخاتم الذي لا يموت

◉ مكتب العميد وجدي عبد الصبور — العباسية
الأحد ١٥ نوفمبر · ٠٩:٠٠ صباحًا

لم ينم أحد. على المكتب أكواب شاي مطفأة، وخريطة مليئة بالدبابيس، وكرتونة واحدة بيضاء من رصيف سبعة مفتوحة بعناية، وفي وسط ذلك كله امرأة تقف عند النافذة، وكيلة النيابة سلمى فاروق، تحدّق في الشارع كمن تعدّ عدد الذين سيموتون قبل الظهر.

— تسعمئة وستة وخمسين ألف علبة — قالت دون أن تلتفت — في أيدي ناس مش عارفين إنهم بياخدوا سمّ.

— أنا قدرت أتتبّعهم — قال يوسف.

التفتوا إليه.

وضع يده على لاصق الكرتونة الذهبي، وأغمض عينيه. وكان الغراء، كالأرض في بورسعيد، يحفظ ما مرّ به: غبار أول مخزن في شبرا الخيمة، بخار ثاني في السلام، وعمّال يرتدون قفازات زرقاء في مخزن ثالث في حلوان. ثم أرقام تتوالى بلا معنى حتى اجتمعت.

— شركة «الندى للتوزيع الدوائي». — قال — اللي وزّعتهم على أكتر من ميتين صيدلية في ثمان محافظات. بدأت توزّع من تمانية أيام.

— ساعة وأكون عامل أمر ضبط — قالت سلمى — محدش هيعرف غير لما نبقى عند الأبواب.

— والوزارة؟

تبادل العميد وماهر نظرة صامتة.

— الوزارة — قال الدرديري — هي اللي فيها الخلل. من غير ما نقول لهم.

شقة تُشبه صاحبها: فوضى صادقة. جدران مغطاة بأرفف مُحمّلة بملفات صفراء، وكراتين على الأرض، وفنجان قهوة قديم على ذراع كرسي، ومنفضة سجائر نظيفة من شخص قرر الإقلاع ولم يقلع.

وكان في كل ركن منها حكاية لمن يقرأ: بقعة قهوة قديمة على غلاف ملف تعود إلى صباح شتوي قبل ثلاث سنين، وتجاعيد ورقة طُويت ألف مرة وهي تُحمل في جيب سترة، وعقب سيجارة مطفأ منذ شهرين لم يرفعه أحد لأن صاحبه يحب أن يتذكر متى أقلع. وفي النافذة ستارة مخملية بنفسجية بهتت من الشمس إلى لون

الرماد، وتحت النافذة وردة جافة في كوب ماء لم يُغيَّر منذ شهور.

دخل يوسف وجلس. لم يسأل عن الخاتم، ولم يكن في حاجة إلى السؤال.

— جلال الراوي — قال ماهر، وهو يجلس على الأريكة المقابلة، وصوته أخشن من عادته — كان رئيسي المباشر في الوزارة. كبير مفتشي الصيدلة. أستاذي. اللي علّمني إزاي أقرأ ورق من غير ما أصدّقه.

مدّ يده إلى درج، وأخرج ملفًا رقيقًا، وألقاه على الطاولة.

وزارة الصحة — الإدارة المركزية للصيدلة

الاسم: جلال الراوي — كبير مفتشي الصيدلة

الحالة: متوفى — حادث سيارة على طريق الواحات

التاريخ: ١٢ مايو ٢٠٢٥

ملاحظة: تعذّر التعرّف الرسمي على الجثة — احتراق كامل

— اتفصلنا إحنا الاتنين بعد تقرير واحد — قال ماهر — أنا كتبته وهو وقّعه. بعد شهرين ماتت العربية بتاعته في حادث. «ماس كهربائي في الوقود» — ابتسم ابتسامة مرّة — دايمًا ماس كهربائي.

— والخاتم؟

— كان في إيده. فضة قديمة، عليها حرف الجيم. كانت مراته نادية جابته له هدية من الغورية في الثمانينات، وكان بيقول إنه الشيء الوحيد اللي ما اتمسّ.

— والجثة؟

— اتحرقت. — قال بصعوبة — ما لقيناش غير هيكل عظمي وبقايا ملابس. والخاتم اتسلّم لولاده. وأنا حضرت الجنازة.

ران صمت كثيف. ثم قال يوسف:

– على الكرتونة اللي في رصيف سبعة، الضغطة بتاعة الخاتم مش قديمة. من كام يوم بس.

– يعني...

– يعني إما إن اللي لابسه ملبوس بعد ما مات... أو إن اللي مات ماماتش.

نظر ماهر إلى الملف أمامه، وإلى الصورة الصغيرة المثبّتة في أعلاه: رجل في الستين، ذو لحية بيضاء مشذبة وعينين هادئتين، يرفع يده إلى الكاميرا وفي إصبعه خاتم فضة.

— لو كان عايش — قال ماهر ببطء — يبقى أنا قعدت أدوّر على قاتله بعد ما اتدفن... وكان هو اللي بيبعتلي الإشارات.

وأخفض رأسه، ولم يتكلم بعد ذلك.

◉ حديقة الأزهر — القاهرة

الأحد ١٥ نوفمبر · ٠٥:٠٠ مساءً

الحديقة الواسعة تتدرّج فوق تلٍّ قديم، ومن شرفتها تتفتح القاهرة الإسلامية كلها: مآذن المماليك المنحوتة كالدانتيل، وقباب العصر العثماني الرمادية، وفي البعيد قلعة صلاح الدين تتلألأ بحجرها الأصفر. ونوافير صغيرة ترشّ هواءً بارد الرطوبة على أشجار تين وكافور، وعلى

العشب الأخضر أطفال يركضون خلف كرة، وفي الهواء رائحة نعناع وتراب مبلل وتبغ عجوزٍ يجلس على مقعد.

حديقة مرتفعة على تلّ قديم، تطلّ على القاهرة كلها: قباب ومآذن وغبار ذهبي في ضوء العصر. جلست ليلى على مقعد خشبي بعيد عن المارّة، تنظر إلى المدينة كأنها تحاول أن تتذكر اسمها. حين رأته قادمًا، قامت ثم جلست.

— إنت زعلان مني — قالت.

— وإنتي زعلانة مني.

— آه.

جلس بجانبها. لم يمدّ يده ولم يبتعد. وبقيا ينظران إلى القباب الصفراء.

— ليه كدبت عليّا؟ — قالت.

— وإنتي ليه قلتيلهم السويس؟

لم تردّ في الحال. ثم قالت، بصوتٍ ضعيف بلا دفاع:

— كان لازم أقول. لو ما قلتش، كانوا هيعرفوا إني بحمي حد. وكانوا هيقتلوني. — ثم رفعت عينيها — بس قلتلك ما تروحش.

— وإنتي عارفة إني كدبت.

— من صوتك. — ابتسمت ابتسامة صغيرة مُرّة — إنت وحش في الكدب.

— وإنتي كويسة فيه.

— آه. — قالت — وده اللي بيخوّفني.

وضع يده على المقعد بينهما، فوضعت يدها فوقها. لم يقل أحد شيئًا لدقيقة كاملة. كانت الريح تحمل رائحة غبار وخبز بعيد.

ورأى يوسف أنها صادقة. لم يرَ ذلك بعينه الثاقبة، بل بقلب لم يتعلم بعد أن يُسكته. رأى أنها تخاف، وأنها

تحب، وأنها تخفي، وكل هذه الأشياء الثلاثة حقيقية معًا.

– في حد تاني يحميني – قالت بصوتٍ لا يكاد يُسمع – ماقدرش أقولك مين.

– وأنا ماقدرش أقولك كل حاجة.

– يعني إحنا الاتنين بنخبّي.

– وبنحب.

نظرت إليه، وكان في عينيها ما يشبه الاعتراف الذي لا يجرؤ على أن يكون اعترافًا. ثم أسندت رأسها على كتفه، وأغمضت عينيها، وهمست:

— ما أعرفش إيه اللي هيحصل لينا.

ولم يجد ما يقوله.

◉ حديقة الأزهر

الأحد ١٥ نوفمبر · ٠٥:٥٠ مساءً

رنّ هاتفه فجأة، مزّق السكون كما تمزّق الأحجار الماء.

— يوسف. — كان صوت العميد وجدي، مخنوقًا — الممرضة. نهى. لقوها النهارده الصبح ميتة في شقتها.

تجمّد.

— إزاي؟

— «ماس كهربائي في السخّان». — مرّت لحظة صمت ثقيلة — دايمًا ماس كهربائي.

أنزل يوسف الهاتف ببطء. ونظر إلى ليلى، التي كانت قد رفعت رأسها عن كتفه، وسمعت الاسم. وكانت قد شحب وجهها كله دفعة واحدة، حتى بدت كورقة بيضاء.

— ليلى؟

— أنا... — قالت بصوتٍ مرتعش — أنا قلتلهم إنها مش هتتكلم. قلتلهم إنها ماكانتش تعرف حاجة.

وكانت هذه الجملة، في وسط الحديقة الجميلة والغروب الذهبي، أبشع ما سمعه في حياته.

الفصل السابع عشر

العين على من يُحَب

◉ شقة نهى — بولاق الدكرور

الأحد ١٥ نوفمبر ٠٧:١٠ مساءً

كانت الشقة صغيرة، من غرفتين وصالة ضيقة، يُحسّ الداخل إليها أن صاحبتها كانت تعيش فيها على أطراف أصابعها. جدران فاتحة اللون، وبعض الصور المعلّقة بدبابيس، وستارة بنفسجية رخيصة، وعلى الأريكة دمية قماشية متآكلة الأذن.

وقف يوسف عند الباب لحظة قبل أن يدخل، وترك عينيه تفعل ما اعتادت: الستارة البنفسجية من قماش شعبي اشترته من سوق الجمعة وغسلته أكثر من ثلاثين مرة بيدٍ لا تحب الصابون الثقيل، والدمية القماشية حيكت يدويًا في ليالٍ طويلة بخيط أزرق نفد قبل أن تكتمل أذنها اليسرى، وعلى الأريكة بقعة شاي سُكب منذ أسبوع ومسحته يدٌ مسرعة. كل ما فيها يدلّ على فتاة تحاول أن تصنع بيتًا من اللاشيء.

وفي الحمّام، قرب باب مفتوح، رجل من الأدلة الجنائية يُصوّر السخّان الكهربائي المسود. وكان العميد

وجدي يقف عند العتبة، يشير إلى يوسف بإصبعه المتعب.

— عايزك تبصّ.

دخل يوسف. وكان في الحمّام رائحة شواء ورماد كهرباء، ورائحة أخرى أخفى، رائحة مخيفة.

نظر إلى السخّان، فرأى. كان السلك الداخلي قد وُصل بالجسم المعدني بيدٍ ماهرة لا يد هاوٍ. وكان الرجل الذي فعل ذلك أعسر؛ فعلامات الأدوات على الطلاء تميل إلى اليسار، وفي طرف الحوض أثر ضغطة كفٍّ يسرى، ثقيلة، متعوّدة على العمل. ورأى في الغرفة المجاورة، على حافة الكنبة، رمادًا دقيقًا من تبغ تركي،

وعلى البلاط حبّة من طين أحمر. جلس رجلٌ في هذه الشقة اثنتين وعشرين دقيقة، يدخّن بلا استعجال، قبل أن يفعل ما فعل.

لم يكن في الشقة صراع. ولم تقاوم.

— مين؟ — سأل العميد.

— مش عارف يا باشا. اللي قتلها أعسر. بيدخن تبغ تركي. بيمشي في طين الواحات.

نظر العميد حوله، ثم نظر إلى ماهر الدرديري، الذي كان واقفًا عند باب الغرفة بجانب الأدلة الجنائية، يوقّع ورقة بيده اليسرى.

ولم يقل يوسف شيئًا. لكن عينيه علقتا لحظة على القلم، ثم عادتا إلى الأرض.

◉ غرفة النوم

الأحد ١٥ نوفمبر · ٠٧:٤٠ مساءً

كانت غرفة صغيرة، سرير ضيّق، وخزانة، وصورة رخيصة بإطار لولد في العاشرة، بأسنان ناقصة وابتسامة واسعة. وعند طرف المرتبة، حين مدّ يوسف يده ورفعها قليلًا، رأى ظرفًا صغيرًا لا يزال مغلقًا.

فتحه العميد: مئة ألف جنيه، بالعدد، لم يُمسّ منها شيء. ومعها إيصال من مستشفى الأطفال، بالمبلغ

نفسه، مدفوع قبل ثلاثة أيام: «عملية قلب مفتوح — المريض: زياد».

وقف يوسف في صمت.

كان قد حكم عليها. من أول يوم، حين رأى المال الجديد في جيب مريولها وقال لنفسه «ليست هي القاتلة، هذه فتاةٌ دُفع لها ثمن شيء لم تُخبَر بحقيقته». لكنه لم يسأل عن الثمن. لم يسأل لمن ذهب. كان قد قرأ كل شيء في المال إلا الشيء الوحيد الذي يجعل الإنسان إنسانًا: أنها باعت نفسها بمئة ألف جنيه كي يعيش ولد في العاشرة.

وجاء الصوت، رقيقًا، في هذا المكان بالذات:

«لم تكن بريئة. لكنها لم تكن شريرة. وأنت تعرف الآن أن الفرق بين الاثنين صغير. ومن بدأ قصتها عليها؟ ليلى».

وكان هذا أول ما قاله الصوت في حياته بحقدٍ حقيقي.

◉ أمام العمارة

الأحد ١٥ نوفمبر · ٠٩:٠٠ مساءً

كانت ليلى تقف عند سيارته، متشبثة بحقيبتها كمن يتشبث بحبل. حين رآها شعر بشيئين متناقضين في اللحظة نفسها: رغبةٌ في أن يضمّها، ورغبةٌ في أن يصرخ.

لم يفعل أيًّا منهما.

— اركبي.

ركبت. ولم يتكلم حتى بلغا كورنيش النيل، حيث توقفت السيارة تحت شجرة قديمة.

— لمين قلتي إن نهى مش هتتكلم؟

— لشريف. — قالت بلا مراوغة — بعتّله رسالة قبل ما نتقابل في الأزهر. قلتله هي صغيرة وخايفة ومش هتتكلم.

— وهو ردّ؟

— قال: «تمام».

— قال تمام. — كرّر بصوتٍ ليس صوته — وبعدها بساعات ماتت.

— بس هو مش اللي قتلها يا يوسف!

— وعرفتي منين؟

— لأنه كان رايح يقابلها بكره. هو بيحب يقابل الناس بنفسه قبل ما... — لم تُكمل — اللي قتلها حد تاني. حد بيشتغل من غير ما يقول لشريف.

— مين؟

— مش عارفة.

حدّق يوسف في وجهها الذي تغيّر مرة أخرى، لا متقنًا ولا فوضويًا، بل وجه امرأة تعبت من البقاء واقفة.

وهمس الصوت: «عاقبها. سلّمها للعميد. قل له الحقيقة: ل. ح. هي ليلى. دعها تدفع ثمن اللي مات».

— لأ — قال يوسف بصوتٍ مسموع.

— إيه؟ — قالت ليلى.

— ولا حاجة.

◉ كافيه صغير على الكورنيش

كافيه خشبي صغير يتدلى فوق الماء، له أنوار صفراء معلّقة في سلك واحد تتأرجح مع الريح، وقوارب النزهة تتمايل خلفه على سطح النيل الأسود، وصوت الأمواج الصغيرة يلطم الأعمدة الخشبية. ورائحة الذرة المشوي والقهوة والرطوبة، وفي الركن بائع ورد يحمل باقات ذابلة.

جلسا إلى طاولة بعيدة، وطلبت ليلى شايًا ولم تشربه. كانت تحدّق في الماء، ثم استأذنت وقامت إلى الحمّام، وتركت حقيبتها وهاتفها على الطاولة.

وكان الهاتف مضيئًا، شاشته مقفلة، بين الفنجانين.

لم يلمسه. لكنه نظر إليه.

وكانت هذه هي اللحظة التي يعرفها كل من أُوتي قدرة ولم يُوتَ معها حارسًا: لحظة تصير فيها العين، التي كانت تشاهد الدنيا، سلاحًا في يد صاحبها.

رأى الزجاج. رأى على سطحه بقعًا دقيقة من زيت الأصابع، مرتبة في نمطٍ لا يراه أحد غيره: أربعة أرقام متتالية، تكررت آلاف المرات في أسبوع واحد. وعرف الرمز. لم يكن في حاجة إلى لمسه، فقد انطبع كله أمامه نحريطة.

أغمض عينيه. ثم فتحهما، وقد عرف أنه ما إن يتجاوز هذه اللحظة لن يعود.

«أنت لا تفعل ما يؤذيها. أنت تريد أن تعرف فقط. ألا يحق لك أن تعرف؟»

مدّ يده. وفتح الهاتف.

لم يكن فيه شيء كثير. صور قليلة، وتطبيقات قليلة، ورقمان محفوظان بلا اسم. وحين فتح الرقم الثاني وجد رسائل أسبوعية قصيرة، بلغة جافة كلغة صاحب عمل، وفي كل رسالة السطر نفسه في الآخر: «دعيه يصل».

وكانت آخر رسالة، قبل ثلاث ساعات:

«الصغيرة بخير. استمري».

وتحتها صورة: فتاة في الخامسة عشرة، بملابس مدرسة، تبتسم للكاميرا بابتسامة ليلى نفسها.

فهم يوسف في لحظة واحدة ما لم يفهمه في أسبوع كامل: أن ليلى لا تخدم من يدفع لها. إنها تخدم من يملك أختها.

أعاد الهاتف إلى مكانه، وأغلق الشاشة. وحين عادت ليلى من الحمّام، ابتسمت له بتعب، وجلست.

— مالك؟ وشّك أصفر.

— ولا حاجة — قال — الجو بارد.

ولم يقل لها إنه قرأها. وهكذا، في ليلةٍ واحدة، فعل يوسف سالم ما لم يفعله من قبل: استعمل هبته على من يحب.

وكان الصوت صامتًا. لم يقل شيئًا. فقد كان انتصاره قد تمّ بلا كلمة.

الفصل الثامن عشر

الصمت الأول

◉ شقة ماهر الدرديري — الدقي

الاثنين ١٦ نوفمبر · ٠٦:٠٠ صباحًا

فتح ماهر الباب وهو يحتسي فنجان قهوة بعينين حمراوين من قلة النوم، ولم يُدهشه أن يرى يوسف على العتبة في هذه الساعة. أفسح له الطريق، وجلس على الكرسي نفسه، وانتظر.

— إنت أعسر؟ — قال يوسف.

نظر ماهر إليه بدهشة، ثم ضحك ضحكة قصيرة خافتة، فيها من الحزن أكثر مما فيها من المرح.

— بتشك فيا.

— آه.

— كويس. — وضع الفنجان — أنا مش أعسر. بس إيدي اليمين اتكسرت في حادثة من سنتين، فبقيت أكتب بالشمال من وقتها. بقيت بعرف أكتب كويس... واللي بتكتبه الشمال ما بيعملش حاجة تانية.

مدّ يده اليسرى، وقلبها أمام يوسف.

نظر يوسف. رأى أصابع كاتب لا أصابع فنّي: ما في باطنها من جلد خشن إلا ما تتركه الأقلام، ولا ندبة في ظهرها، ولا أثر مفتاح ولا سلك. ورأى المعصم الأيمن القديم المكسور، وقد التحم عظمه بخطّ دقيق.

— مش إنت — قال يوسف.

— عارف. — ابتسم ماهر بتعب — بس ما تزعلش إن الواحد بيتشكّك. اشكّ في كل حاجة حتى فيا. بس بعد كده، ماتشكّش من ورايا.

— حاضر.

– ولا تشكّ بالصمت. – أضاف – الصمت أخطر.

وكان في هذا الكلام ما هو أكبر من درس. ثم أخرج يوسف من جيبه ورقة صغيرة، كتب عليها رقمًا حفظه في ذاكرته.

– الرقم ده. المحفوظ في تليفون ليلى بلا اسم. «المشرف». لو تقدر تتتبعه.

لم يسأل ماهر كيف وصل إليه. أخذ الورقة، وطواها، ووضعها في جيبه.

نتيجة تتبّع الرقم — بمعرفة غير رسمية

الخط: مسجّل باسم مدرسة خاصة — مدينة نصر

آخر ظهور على برج: طريق الواحات — الكيلو ٥٨

نمط الاستخدام: ليلي فقط، من ١١ مساءً إلى ٣ فجرًا

قرأ ماهر الورقة التي وصلته بعد ثلاث ساعات، ورفع عينيه إلى يوسف ببطء:

— الكيلو ٥٨. نفس طين المصنع.

◉ **مدرسة «الأمل» الدولية — ٦ أكتوبر**

الاثنين ١٦ نوفمبر · ٠٢:٠٠ ظهرًا

كانت المدرسة مبنى حديثًا بواجهة بيضاء ونوافذ زرقاء، يحيط به سور قصير مزروع بالياسمين، وبوابة

حديدية يقف عندها حارس بزيّ رمادي يمسح عرقه بمنديل. وعلى الرصيف باعة صغار: عربة ذرة، وأخرى للحلوى القطنية الملوّنة، وثالثة للمثلجات رغم برد الخريف. وضجيج الأطفال يتصاعد من داخل الفناء كطيرٍ ضخم، وفي الهواء رائحة سكر محروق وغبار طباشير.

بوابة مدرسية بيضاء، وأشجار صغيرة مزروعة بعناية، وأطفال بملابس زرقاء يتدفقون إلى الخارج كالماء. وعلى الرصيف المقابل، داخل سيارة بلا علامات، جلس رجلان يتظاهران بقراءة الصحف، وعلى لوحة السيارة طين أحمر ناعم.

وقف يوسف في ظلّ شجرة، على مبعدة، وعيناه على الفتاة التي خرجت من البوابة: في الخامسة عشرة، نحيلة، بشعر مرفوع بدبوس، ووجه يشبه وجه ليلي إلى حد يوجع. ابتسمت لصديقة لها، وتحدثت بصوتٍ لا يصل. وكانت السيارة البيضاء تتحرك ببطء، تتبعها على بُعد عشرين مترًا.

ورأى يوسف الرجلين.

أحدهما شاب نحيف، لا يعرفه. والآخر في المقعد الأمامي، رجل ثقيل المنكبين، كمّه الأيسر مرفوع حتى المعصم، ويده على المقود. وكان في ظهر هذه اليد

اليسرى، حيث لا يراه أحد، خطٌّ أبيض رفيع. ندبة قديمة نحيط.

رأى رمادًا تركيًا على لوحة العدّادات، وطينًا أحمر في باطن الحذاء، وسيجارة لُفّت باليد اليسرى بعناية رجلٍ لا يتعجل.

— الأعسر — قال يوسف لنفسه — الندبة. التبغ. الطين.

لم يتحرك. لم يخطُ نحوه. كان يعرف أن ما يقف أمامه رجلٌ قتل نهى ببرودة اثنتين وعشرين دقيقة من التدخين، ولا يزال يتابع طفلة لا يعرف أنها تُراقب.

اتصل بالعميد وجدي، ببضع كلمات: «حرّاسة بلباس مدني حوالين البنت. حالًا. وماحدش يلمس العربية».

ثم راح يراقب السيارة وهي تنزلق في الشارع، حتى غابت.

◉ شقة يوسف سالم — شبرا

الاثنين ١٦ نوفمبر · ٠٩:٠٠ مساءً

تحت المصباح الأصفر الخافت تحوّلت الشقة الصغيرة إلى غرفة دافئة غير معتادة: كيس ورقي منتفخ بالخبز الطازج، وصحن زيتون لامع، وقطعة جبن بيضاء ذات حواف دهنية، وحلاوة طحينية في ورق شمعي،

وعلى الأرض سجادة صغيرة بلون الكراميل، وضوء الشارع يمر من الستارة فيرسم على وجه ليلى خطوطًا ذهبية رقيقة.

كانت ليلى قد جاءت بنفسها، بلا موعد. فتح لها يوسف الباب، فدخلت وهي تحمل كيسًا ورقيًا فيه خبز دافئ وحلاوة وجبنة وزيتون، كأنها تعتذر بالطعام عمّا لا تقدر أن تعتذر عنه بالكلمات.

جلسا على الأرض إلى طاولة صغيرة، وأكلا بصمت. كان طعم الخبز دافئًا، وكان الضوء الأصفر الخافت من المصباح يلوّن وجهها، وكانت أكثر جمالًا مما رآها، لأنها لم تكن تتصنع شيئًا.

— عندي أخت صغيرة — قالت فجأة.

توقف يوسف عن الأكل.

— اسمها دينا. عندها خمستاشر سنة. — لم تنظر إليه — هي السبب في كل حاجة. ما كانش عندي غيرها. وفي يوم حد قالّي: «عندك اختيار». ما كانش اختيار.

نظر إليها يوسف. وكان في صدره شيء واقف على حافة، لا يعرف إن كان يسقط أم يصعد.

وكان يعرف أنه ما إن يقول ما سيقوله، فلن يعود شيء كما كان.

— ليلى.

– أيوه.

– أنا قريت تليفونك.

لم تتحرك.

– امبارح. في الكافيه. وانتي في الحمام. شفت الرسالة الأخيرة: «الصغيرة بخير. استمري». وشفت الصورة.

– صوته ينزف – كنت عارف إن اللي بعمله غلط. وعملته.

مرّت لحظة صمت. ثم رفعت ليلى عينيها إليه، بلا غضب وبلا دموع. نظرة من أُدرك له أمر كانت تعرفه من البداية.

— كنت عارفة إنك هتعمل كده في يوم. — قالت بهدوء — ده اللي كان بيخوّفني منك.

— أنا آسف.

— مش عايزة أسف. — وضعت يدها على يده — إنت قلتلي. ده كفاية.

بكت، لأول مرة منذ عرفها، بكاءً لا يُحتاج إلى أن يُخبَّأ. ولم يقل أحد شيئًا لدقائق.

— دينا هتبقى في أمان — قال يوسف أخيرًا — النهارده العميد حطلها حرّاسة. وأنا شفت الراجل اللي بيتابعها. اللي قتل نهى. هنوصله.

— إنت شفته؟

— شفته.

أمسكت يده بكلتا يديها، وأسندت جبهتها إليها. وكان في دفء جبهتها ما لم يعرفه قبل ذلك.

وفي رأسه، للمرة الأولى منذ استيقظ في ذلك السرير الأبيض، كان الصمت كاملًا. لم يهمس أحد. لم يعرض أحد. ولم يكن في الغرفة إلا رجلٌ وامرأة وخبز دافئ.

وكان هذا، رغم كل شيء، أوّل انتصارٍ له.

الجزء الرابع

الكشف

القناع يسقط، والعين تغلق على ما تعلّمته

الفصل التاسع عشر

الكيلو ٥٨

◉ شقة يوسف سالم — شبرا

الثلاثاء ١٧ نوفمبر · ٠٩:٠٠ صباحًا

جاءت ليلى مبكرة، قبل أن يُنهي يوسف قهوته، وكان وجهها وجه امرأةٍ لم تنم. جلست أمامه على الأريكة، وأخرجت هاتفها، وبسطته على الطاولة دون كلمة.

رسالة إلى «ل. ح.» — الثلاثاء ٠٦:٤٠ صباحًا

الليلة. الكيلو ٥٨. تجيئين به وحدك.

إن رافقه أحد، فالصغيرة تدفع الثمن.

قرأ يوسف الرسالة مرتين. ثم رفع عينيه إليها.

— وانتي جيتيلي بيها.

— كنت ممكن أخبّيها — قالت بصوتٍ مبحوح — كنت ممكن أروّحك الكيلو ٥٨ وأنا ساكتة، وأقول لنفسي إني بحمي دينا.

— وليه ما عملتيش؟

– لأنك قلتلي. – ابتسمت بوهن – لأنك قلتلي إنك قريت تليفوني. ومحدش قبلك قالي حاجة بالصراحة دي. حسّيت إني مديونة لك.

لم يقل يوسف شيئًا. كان في صدره ثقل غريب، شيء يشبه الامتنان، وشيء يشبه الخوف من أن يكون الامتنان نقطة ضعف.

– هنروح – قال أخيرًا – بس مش وحدنا.

– هيقتلوا دينا لو...

– دينا في حراسة العميد من إمبارح. ما حدش هيقرّب منها. – وضع يده على يدها – ومعانا ناس

هيبقوا ورانا على بعد كيلو. وماهر. وسلمى فاروق بإذنها. ولو شافونا بنتحرك، هيبقى معانا اللي يكفي.

نظرت إليه ليلى نظرة طويلة، كمن يزن ما لا يوزن، ثم قالت:

— لو حصل حاجة... لو أنا اتخطفت أو...

— مش هتتخطفي.

— لو حصل — كررت — دينا عندك. وعد.

— وعد.

ليل الصحراء الواسع: نجوم لا تحصى كغبار ماسي على مخمل أسود، وريح باردة تلعب بالرمل فتزحف كثبان صغيرة عبر الطريق، وعواء ذئب بعيد أو كلب ضال. وعلى جانبي الأسفلت أعمدة كهرباء مائلة بلا أسلاك، وأكوام حجارة تشير إلى مسافات منسية، وفي الهواء رائحة رمل بارد وبنزين.

صحراء بلا قمر. شريط إسفلت رمادي يمتدّ بين تلال رملية لا نهاية لها، وسيارة واحدة تشقّ العتمة بمصباحين، وفي مقعدها الأمامي رجل وامرأة لا يتحدثان.

كانت ليلى تقود، وعيناها على الطريق. وكان يوسف يجلس بجانبها، وعيناه على كل شيء.

يرى الطريق كما لم يرَه أحد: رمله الأحمر الذي تحمله الرياح من الجنوب، وبقع الزيت التي تركتها شاحنات كثيرة في هذا الاتجاه نفسه منذ شهور، وخطوط إطارات متراكبة تشير إلى عشرات الرحلات. ثم، عند الكيلو ٥٨، على اليمين، مبنى منخفض مهجور: مصنع طوب قديم، سقفه منهار، وفي فنائه برج صدئ لا يبدو أنه يخدم شيئًا.

— هنا — قال.

أوقفت ليلى السيارة. وكان في الظلام رجلٌ يقف بجانب برج الصدأ، بقامة ثقيلة، وسيجارة تلمع عند فمه كجمرة صغيرة. وقد رفع كمّه الأيسر حتى المعصم.

وحين اقترب، ضوء المصباح مرّ على ظهر يده، فرأى يوسف الخط الأبيض الرفيع.

— مساء الخير يا أستاذ يوسف. — قال الرجل بصوتٍ هادئ كصوتِ من يعتاد أن يُطاع — أنا عاطف. اتأخرتوا شوية.

— الطريق طويل.

— طويل جدًا. — ابتسم — وعلى فكرة، كويس إنك جيت بلا حد معاك. الباشا مش بيحب الزحمة.

نظر إلى ليلى، وإلى السيارة، وإلى الظلام الذي خلفها كمن يتأكد من أن لا أحد يتبعهما. ثم أشار إلى البرج.

— اتفضلوا.

◉ داخل المصنع تحت الأرض

الثلاثاء ١٧ نوفمبر · ١١:٥٠ مساءً

مصعد حديدي صدئ ينزل بصرير طويل، أربعين مترًا تحت سطح الأرض، ثم يتوقف بارتجاجة. وينفتح

الباب على عالم آخر.

قاعة هائلة، مضاءة بمصابيح بيضاء شاحبة، تمتد أمامهم كمدينة صناعية مخبوءة: خطوط تعبئة تدور بصوت أجشّ، وعشرات العمّال بأقنعة بيضاء يخنون على أحزمة ناقلة، وأقراص بيضاء صغيرة تنزلق في الأغلفة الذهبية بلا توقف. وفي سقف القاعة أنابيب تهوية ضخمة تئنّ.

رأى يوسف كل شيء.

قرأ الهواء قبل أن يقرأ الأشخاص: رطوبة منخفضة تعني تكييفًا قويًا، وغبار بودرة أبيض ناعم يعلق بالأنابيب وفيه ذرات مادة فعّالة يتنفسها العمّال مع

كل شهيق، وعلى الأقنعة البيضاء بقع أصابع مبللة بالعرق. وفي عيون العمّال، حين يمرّ بهم، يقرأ رحلة كل واحد: هذا من أسيوط، وهذا من سوهاج، وتلك من قرية بالمنيا تركت طفلين عند أمها.

رأى العمّال: رجالًا ونساءً من قرى بعيدة، لا يعرفون ما يصنعون. يظنون أنهم يعبئون مكمّلات غذائية. وفي الوجوه تعب بريء لا يعرف أنه يصنع الموت. رأى ماكينات من خمس دول، أدخلت مفككة عبر موانئ مختلفة. رأى خزانات المادة الخام. رأى كل شيء بوضوح مخيف: الأقراص التي تُصنع

الآن في هذه اللحظة بالذات ستكون في صيدليات القاهرة بعد ثلاثة أيام.

— إيه ده؟ — همست ليلى بصوتٍ مخنوق.

— ده المصنع — قال يوسف.

ولم يزد.

سار عاطف أمامهما بخطًى ثابتة، يمرّ على العمّال دون أن يلتفت إليهم، كأنهم جزء من آلات القاعة. وكان يوسف، وهو يمشي خلفه، يقرأ يده اليسرى، وقد استقرّ على المقبض الحديدي لباب المكتب الزجاجي.

وفي المقبض أثر كفٍّ آخر، سابق، ضغطته يد أنيقة، يد كبيرة، فيها خاتم ثقيل. ضغطة فضة قديمة، عليها حرف الجيم.

— اتفضل — قال عاطف.

فتح الباب.

◉ مكتب زجاجي في عمق المصنع
الأربعاء ١٨ نوفمبر · ١٢:٠٥ صباحًا

غرفة نظيفة، مرتبة، لا تشبه ما حولها: مكتب خشبي قديم، ورفوف كتب، وقهوة تركية تُغلى على

موقد صغير. وخلف المكتب، يوليهم ظهره، رجل ينظر من نافذة زجاجية إلى القاعة الصاخبة في الأسفل.

وحين التفت، كان يبتسم.

رجل في الستين، لحيته البيضاء المشذبة، وعيناه الهادئتان اللتان رآهما يوسف قبل يومين في صورة صغيرة مثبّتة في ملف. وفي إصبعه، فوق يد مستلقية على المكتب، خاتم فضة ثقيل.

— أهلًا يا يوسف — قال جلال الراوي — اتأخرت.

الفصل العشرون

الرجل الذي سمع الصوت

◉ المكتب الزجاجي — تحت الأرض

الأربعاء ١٨ نوفمبر · ١٢:١٠ صباحًا

كان المكتب جزيرة صغيرة من الماضي وسط بحر الآلات: مكتب من خشب الجوز الداكن بحواف مصقولة، ومصباح مكتبي نحاسي بزجاج أخضر، ورفوف مملوءة بكتب الصيدلة القديمة بأغلفة جلدية متشققة، وطقم قهوة نحاسي لامع على صينية مزخرفة، وسجادة تركية باهتة اللون تغطي جزءًا من الأرض

الإسمنتية. ومن خلف الزجاج يتحرك عشرات العمّال في ضوء أبيض، فيبدو الرجل كأنه جالس في مقصورة قطار يمرّ على أرضٍ لا تعنيه.

وقف الباب الزجاجي مفتوحًا خلفهم، وكان عاطف يتكئ عليه بكتفه الثقيلة كمن يحرس حائطًا لا يحتاج إلى حراسة. وعلى الموقد الصغير فار البنّ في الركوة النحاسية، وفاحت منه رائحة قهوة تركية ثقيلة، رائحة تعرفها كل البيوت التي سكنها العجائز.

— اقعدوا — قال جلال الراوي — القهوة هتبرد.

لم يجلس أحد. وكانت ليلى قد التصقت بيوسف دون أن تُدرك، وعيناها على الرجل ذي اللحية البيضاء

كما تنظر الفريسة إلى أثر القدم.

– إنت مش المشرف؟ – قالت بصوتٍ ضعيف – إنت... اللي كان بيبعتلي؟

– أنا. – قال بلا اعتذار – وأنا اللي جنّدتك يا ليلى. مش شريف. شريف كان بيدفع. أنا اللي كنت بقودك.

– ووعدتني إنك بتحميني!

– وبحميكي. – وضع فنجانًا أمامها – ودينا. من شريف. الراجل ده كان ناوي يخطفها من تلات شهور، علشان يضمن إنك ما تخونيهوش. أنا سبقته.

– بتخطفني بالتهديد؟

– بالحماية. – ابتسم – والفرق بينهم رفيع، أنا عارف.

نظر يوسف إلى الفنجان، فرأى فيه ما لا يراه أحد: بنّ حُمّص في الدقي منذ يومين، وماء من حنفية قريبة، ويدٌ تسخّن النحاس منذ ثلاثين سنة بالطريقة نفسها، لا تتغيّر.

– إنت عايش – قال.

وقرأه كما يُقرأ كتابٌ قديم قبل أن تُفتح صفحاته: أصابع ثابتة، وجلد شاحب لم تشرق عليه شمس منذ

عام، وفي لحيته أثر صابون عطري رخيص يُباع في أحياء الدقي، وفي ثنايا ردائه رائحة قهوة وورق عتيق وخوف قديم تعلّم أن يخفيه. وخاتمه الفضي مصقول من كثرة مسحه بمنديلٍ لا ينتبه إليه.

— بلا فضل. — رفع حاجبيه — أنا اتحرقت جثتي من غير ما أموت. عربيتي اتفجرت وأنا بره منها بدقيقتين. اللي دفناه هو جثة واحد مجهول من المشرحة، واللي شافوه ولادي ما شافوش غير بقايا. وفي الوزارة ما حدش سأل.

— وماهر؟

تردّد، لأول مرة.

— ماهر كان أكتر واحد أحبه — قال، وصوته خفت — وما قدرتش أقوله.

◉ المكتب الزجاجي

الأربعاء ١٨ نوفمبر · ١٢:٣٠ صباحًا

سكبت الركوة قهوتها، وجلس جلال الراوي إلى مكتبه، ووضع يديه المتشابكتين فوق الخشب، وراح يتكلم بلا استعجال، كمن اعتاد أن يشرح للجان.

— من خمس سنين، عرفت إن شفاء جولد بتصنّع تشغيلات مغشوشة. مات منها ناس. كتبت تقرير. ماهر وقّعه معايا. اتفصلنا. وبعد شهرين اتأكدت إن الدولة ما فيهاش حد هيسمعني. — رفع يده — فمتّ.

– ازاي؟

– مات الراجل اللي بيسأل. وقام راجل تاني، يدخل المصنع من جوّه. في أقل من سنة بقيت واحد من اللي بيعرفوا كل حاجة، وماحدش يعرف إني أنا. وطلعت بخطة. محتاجة ثلاثة حاجات: عيّنة، ومعمل نضيف، وراجل أمين.

– أنا.

– إنت. – قال بحنان غريب – احنا ما اخترناكش. إنت الوحيد في القاهرة اللي كتب «مطابقة للمواصفات» تلاتة وتلاتين ألف مرة في إحدى عشر سنة، ولا مرة واحدة كتبها وهي مش

حقيقة. ما كنتش بدوّر على عبقري. كنت بدوّر على راجل ما بيكدبش.

ضحك يوسف ضحكة صغيرة بلا مرح.

– وكنت عارف قصة أمي – قال يوسف فجأة.

– عارف. – قالها بصوت خفيض – قريت ملفك في الوزارة قبل ما أختارك. السيدة عفاف، الله يرحمها. وعارف إنك ما كتبتش جملة غير حقيقية من يوم ما مرضت، لأنك عارف إيه اللي بتعمله الكلمة اللي مش حقيقية.

لم يجد يوسف ما يقوله. وللمرة الأولى منذ دخل هذا المكان، ارتجف شيء في صدره.

— وبعتّلي العيّنة اللي هتتفجر؟

— العيّنة ما كانتش هتتفجر. اللي بيّت الانفجار شريف، لما عرف إنها في المعمل. أنا ما كنتش أعرف. — وضغط بإصبعه على المكتب — وقبل ما أتحرك، كنت إنت في المستشفى بعينين مختلفتين.

— وماهر قعد جنبي تلات ليالي...

— ما بعتّوش. هو اللي جه من نفسه. — ابتسم ابتسامة عجوز — وده بالظبط اللي بحبه فيه.

قال يوسف:

— وقتلتوا نهى ليه؟

لم يتحرك في المكتب شيء. سكت الموقد، وتجمّد البخار في الهواء. كان عاطف قد انتصب عند الباب، وذراعه اليسرى تتدلى على جنبه، وفي ظهر يده ذلك الخط الأبيض كأنه يلمع.

وقال جلال الراوي بصوتٍ لم يتغيّر:

— كانت هتتكلم.

— لشريف؟

— لشريف. كانت خايفة، وعندها أخ بيتعالج، وشريف كان هيدفع أكتر. ولو اتكلمت، كان هيعرف إن في عين تانية بتراقب المعمل. وكان هيحرق كل حاجة. وكان هيموت ناس كتير أوي.

— فقتلتوها.

— عاطف قتلها. بأمري.

نظر إليه يوسف نظرة لم يعرفها في نفسه قبل ذلك: لا غضبًا ولا خوفًا، بل شيئًا باردًا وواضحًا كزجاج.

— وتخيّلت إنك هتقولي ده وأنا هسكت؟

– لأ. – قال جلال الراوي برفق – أنا بقولك عشان تسمع الباقي.

◉ المكتب الزجاجي

الأربعاء ١٨ نوفمبر ٠١:١٠ ٠ صباحًا

قام جلال الراوي، وسار إلى النافذة الزجاجية، حيث تتحرك مئات الأيدي الصغيرة في ضوء أبيض بارد. وكان ظهره إليهم حين تكلم.

– في الصوت اللي بتسمعه يا يوسف.

تجمّد.

— بتسمع صوت. بيقولّك: «استعمل هبتك لنفسك». بيقولّك: «اللي بتعمله غلط بس ضروري». ببالي إنه بيحاول يقنعك بحاجة. — التفت — أنا سمعته من تلاتين سنة. من غير هبة. من غير عين. بس بقدر الواحد العادي اللي بيخاف على ولاده.

— إنت...

— أنا مش شرير يا يوسف. أنا إنسان سمع الصوت وما كانش عنده حاجة يحاربه بيها. غير إنه يمشي معاه خطوة خطوة. وكل خطوة كان ليها مبرر. وكل مبرر كان صح.

أخذ نفسًا عميقًا:

— وإنت دلوقتي فيك الاتنين. العين اللي بتشوف، والصوت اللي بيوسوس. وفاضل لك قرار واحد: تمشي زيي، ولا تمشي لوحدك.

كانت ليلى قد أمسكت بذراع يوسف دون أن تُدرك، وأصابعها ترتجف.

— وبتعرض إيه؟ — قال يوسف.

— أعرض إنك تنضمّلي. — قال بهدوء — ومعاك كل حاجة. أنا هسلّمك الدفاتر. الأسهم. الحسابات. كل حاجة تدين شريف. وهطلّع ليلى ودينا من الموضوع نظاف، من غير ما حد يحاسبهم. وأنت — ابتسم — هتقدر تشوف كل شخص في مصر، وكل

شحنة، وكل ورقة. وهنقدر نخلّص البلد من كل شريف جاي.

— وبالمقابل؟

— بالمقابل... — توقف — تقول للنيابة إن نهى ماتت بإيد شريف. وبس.

◉ المكتب الزجاجي

الأربعاء ١٨ نوفمبر ٠ ١:٢٠ ٠ صباحًا

كان الصمت في المكتب أطول ما عرفه يوسف في حياته. والموقد قد انطفأ. وجاء من بعيد، من عمق القاعة، صوت المصنع يدور كقلب أعمى.

«ألم أقل لك؟» همس الصوت، وكان الصوت عميقًا بهدوء مرعب. وكان في كلماته شيء من الحنان القديم، كأنه يخاطب ابنًا طال غيابه. «هذا هو الطريق، يا يوسف. كلمة واحدة، وتنجو ليلى، وتنجو دينا، وتنتهي الحكاية. وماذا ستخسر؟ امرأة ماتت. وقد ماتت. فلماذا تضيف إلى موتها موتًا آخر؟»

ونظر يوسف إلى جلال الراوي، فرأى ما لم يره فيه أحد قبله: رجلًا عجوزًا متعبًا، نحيفًا، يشبه الأنبياء الذين ضلّوا الطريق إلى السماء فعاشوا بين الناس.

وفي تلك اللحظة، ارتفع من بعيد صرير المصعد.

اهتزّت الأرضية قليلًا. التفت عاطف إلى الباب، وأدار يده اليسرى نحو حزامه. وارتفع صوت أقدام تنزل على الحديد، تتبعها وقفة، ثم خطوات تقترب بين خطوط الإنتاج.

ثم ظهر في الباب الزجاجي رجل ضخم الكتفين، شعره المشيب غير مُسرَّح، وفي يده سيجارة غير مشتعلة.

تجمّد ماهر الدرديري على العتبة.

كان وجهه، حين رأى الرجل الجالس خلف المكتب، يتبدّل كما تتبدّل الأرض حين تنشق: من الدهشة إلى الإنكار إلى شيءٍ آخر، شيءٍ يشبه الطفولة.

– جلال؟ – قال بصوتٍ لم يخرج.

– إزيك يا ماهر – قال جلال الراوي، مبتسمًا، وعيناه مبللتان – وحشتني.

الفصل الحادي والعشرون

مطابقة للمواصفات

◉ المكتب الزجاجي — تحت الأرض

الأربعاء ١٨ نوفمبر · ١:٣٠ صباحًا

كان للمكتب في تلك اللحظة صوتٌ لا يُشبه صوت أي غرفة: دَمدمة عميقة متصلة تصعد من أرضية القاعة، من مئة ماكينة تعمل في الوقت ذاته، فيرتجف الزجاج في إطاره ارتجافة خفيفة، وتهتز على الصينية النحاسية فناجين القهوة اهتزازًا لا يُرى بل يُحَسّ. وفوق المكتب مصباح أخضر الزجاج يلقي على الوجوه ضوءًا

باهتًا، يجعل الشعر الأبيض في لحية جلال الراوي يبدو مبتلًّا بماء البحر.

وقف ماهر الدرديري في الباب كمن نسي كيف يمشي. كانت السيجارة غير المشتعلة قد سقطت من أصابعه، ولم يلتفت إليها. وجهه الذي لم يعرف عنه يوسف إلا الفوضى الصادقة صار فجأة وجهًا مغسولًا من كل لون.

— دفنتك — قال بصوتٍ مكسور — بإيدي. حطيت التراب عليك بإيدي دي.

— ما دفنتش حد. — قال جلال بهدوء — دفنت صندوقًا فيه تراب وعظم ماعرفناش صاحبه.

– كنت بقعد قدام قبرك كل خميس!

– عارف. – ابتسم، ودمعة صغيرة تسيل في لحيته، لم يمسحها – كنت بقف في آخر المقابر أشوفك.

أخذ ماهر خطوة إلى الأمام، ثم أخرى، ثم، دون أن يدري أحد كيف، كان قد وضع يده الأخيرة على كتف الرجل الجالس، يضغط عليه بقوة من يتأكد أن ما أمامه لحم ودم لا شبح. وبكى، بكاءً رجوليًّا ثقيلًا كحجر يتدحرج في بئر.

وكان يوسف يقف على بعد خطوتين، فرأى الخاتم الفضي من قرب.

قرأه بطبقاته الخمس. الجوهر: فضة بعيار ثمانمئة وخمسة وثلاثين في الألف، من الطراز الذي يُصاغ في ورش الغورية. الميلاد: صيغ سنة ألف وتسعمئة وخمس وثمانين على يد صائغ أرمني عجوز لم يكتب اسمه على شيء. الأيدي: ثلاث أيدٍ فقط؛ يد الصائغ، ويد امرأة قدّمته هدية، ويد هذا الرجل. الرحلة: ثلاثون عامًا من الوضوء والصلاة والتوقيع والقهوة، ومرة واحدة، ليلة واحدة، أُخرج من الإصبع ودُفن في تراب مقبرة غريبة ثم عاد. الأثر: في باطن الحلقة، حيث لا يراه أحد، نقش دقيق بخط الرقعة: «إلى جلال، من نادية، ١٩٨٨».

ولم يكن الرجل الذي يجلس أمامه وحشًا. كان رجلًا لم يكفّ عن حب امرأة ماتت.

◉ المكتب الزجاجي

الأربعاء ١٨ نوفمبر · ١:٤٥ · صباحًا

رفع ماهر يده عن الكتف، وأخذ نفسًا طويلًا، وتغيّر في صوته شيءٌ حاد:

— نهى.

لم يتحرك جلال.

— البنت اللي ماتت. الممرضة. — قال ماهر — صح إنك أمرت بقتلها؟

– صح.

– ليه؟

– عشان اتنين وأربعين واحد يعيشوا. – قال جلال، وكان صوته ثابتًا ثباتًا مخيفًا – وإنت عارف الحساب، يا ماهر. إنت اللي علّمتني إن الحساب مش بيكدب.

– الحساب بيكدب لما اللي بيحسبه بيحط نفسه في الميزان. – قال ماهر، وفي صوته ما لم يسمعه يوسف منه قبل ذلك: غضب نظيف – اللي بيحسبها كده بيوصل لأي رقم. النهارده واحدة بحياة اتنين وأربعين. بكره اتنين بحياة ميتين. وبعده ألف بحياة

مليون. إنت علّمتني إن الورق بيتقرأ من غير ما يتصدّق. ما علّمتنيش إن الإنسان ممكن يبقى ورقة.

انعقد صمت. ودمدمة المصنع تحت الأقدام.

نظر عاطف إلى جلال، ونظر جلال إلى يوسف. وكانت عينا ليلى، في ركن الغرفة، تتحركان بين الوجوه كطائر محبوس.

— الاختيار لك دلوقتي — قال جلال بلطف، كأنه يتحدث عن طبق حلوى — إنت بتكتب الحقيقة. مش هعرض عليك تكدب لأنك عمرك ما كدبت. أنا بس أطلب إنك تشهد بإن نهى اتقتلت بإيد رجال شريف. وأنا هديك كل الورق اللي معايا.

«وافق» — همس الصوت، قريبًا، قرب الحلم — «ليلى ودينا في أمان. شريف يسقط. الحاجة سنية تعيش. والأربعون الذين ماتوا يُنصَفون. وأنت لن تكذب، فأنت لم ترَ من قتل نهى بعينيك، ولا أحد رآه».

◉ المكتب الزجاجي — الرفوف

الأربعاء ١٨ نوفمبر · ٠٢:٠٠ صباحًا

فنظر يوسف إلى الرفوف.

ولم يكن ينظر لسبب. كان في رأسه سؤال صغير، لا يزال يتقلب، شيء لا يُشبه الشك ولا الإيمان: كيف

يملك رجل واحد، في سنة واحدة، كل هذه الأدلة على رجل آخر؟

وعلى الرفوف، بين كتب الصيدلة العتيقة، صفّ من ملفات سميكة مجلّدة بالجلد الأسود، كل ملف بعنوان باللون الذهبي: «شفاء جولد — الحسابات»، «شفاء جولد — التشغيلات»، «شفاء جولد — التحويلات».

مدّ يده، وسحب أحدها، وفتحه.

وكان هنا تمامًا، في أقل من لحظة، أن العين التي لم تخطئ في حياتها قرأت.

رأى الورق: أوراق بيضاء ناصعة طُبعت قبل تسعة أيام في مخزن بشبرا الخيمة على آلة ليزر مستعملة، وفي نهايتها ثغرات حبر صغيرة تظهر في كل صفحة ثالثة. ورأى التوقيعات: ليست توقيعات، بل نسخ ونقلات عن ورق شفاف، بضغطة واحدة متساوية لا تعرفها يد تكتب. ورأى التواريخ: مكتوبة بخط يد ثم مُسحت بالمسطرة لتبدو أقدم. ورأى الحبر الذي صُدّقت به الأختام: أسود فاحم بلمعة زرقاء خافتة لا تظهر إلا في الضوء المائل، حبر يعرفه جيدًا: حبر قلم ليلى، وحبر بطاقة النقيب هشام الشرقاوي.

ما قرأه يوسف في ملفات «شفاء جولد»

الورق: طُبع قبل ٩ أيام في مخزن بشبرا الخيمة

التوقيعات: منقولة بورق شفاف، لا مكتوبة بيد

التواريخ: مكتوبة ثم مُسحت لتبدو أقدم

الحبر: أسود فاحم بلمعة زرقاء — حبر ليلي، وحبر بطاقة النقيب

أغلق الملف ببطء.

◉ **المكتب الزجاجي**

الأربعاء ١٨ نوفمبر · ٠٢:١٥ صباحًا

— مزوّر — قال يوسف.

لم يتغيّر وجه جلال. كان الوجه الذي يعرف أن لحظة الكشف قادمة، ويجلس لها منذ سنة.

— كل حاجة. مش بس الدفاتر. ملفات الحسابات، والتشغيلات، والتحويلات. — كان صوت يوسف خافتًا، وكان يشعر أن الغرفة تضيق — إنت ما معاكش دليل يا أستاذ جلال. اللي معاك راجل ما بيكدبش، تحطه على كرسي الشهادة، وتخليه يقول «ده صح».

— أيوه — قال جلال، بلا ندم، بلا مراوغة — مفيش دولة هتصدق راجل مفصول ومات ورجع.

بس هتصدق مهندس مواد كتب «مطابقة للمواصفات» تلاتة وتلاتين ألف مرة.

— وهتدخل الورق ده في ملف النيابة.

— بتوقيعك.

— وأنا هقول إيه؟ إني قريته بعيني؟

— إنك قريته.

ابتسم يوسف ابتسامة لم تكن ابتسامة. وفي رأسه، ولأول مرة، لم يكن هناك صوت. كان هناك شيء آخر: وجه امرأة في ربيع قبل عامين، على سرير في غرفة صغيرة مكتظة بأجهزة المستشفى، تقول وهي تبتسم

ابتسامتها المتعبة: «أنا مش زعلانة منك يا يوسف. إنت عمرك ما كدبت عليّا».

– أنا ما كتبتش «مطابقة» على ورق مزوّر في حياتي – قال يوسف، وصوته ينكسر ثم يثبت – وأمي ماتت عشان واحد كتبها.

– يوسف...

– مش محتاجة دفاترك. – رفع عينيه – أنا هقرأ المصنع كله. كل ماكينة. كل تشغيلة. كل إيد لمست قرص. كل ورقة اتمضت وأنا قاعد في المحكمة. بالحقيقة. وهتاخد وقتها، وهتبقى أصعب، وممكن شريف يهرب لسنين. بس هتبقى حقيقية.

ساد صمت أثقل من كل ما سبق. ثم ضحك جلال الراوي ضحكة قصيرة، متعبة، حقيقية.

— كنت عارف.

— عارف إيه؟

— كنت عارف إنك هتقول كده. — مسح لحيته بيده التي فيها الخاتم — ولو قلت أيوه، يا يوسف، كنت هدوّر على غيرك. اللي بيقبل يكدب مرة، مبيقفش.

— يعني كنت بتختبرني؟

– كنت بطلب منك اللي كنت محتاج أسمعه. بس كان لازم أعرف إنك هتقولها. – نظر إلى ماهر – وإنت. وإنتِ. – نظر إلى ليلى – كلكم.

وفي تلك اللحظة، بعيدًا في عمق المصنع، انطلق صوت.

صفارة إنذار حادة، متواصلة، تشقّ دمدمة الماكينات كسكين تشقّ قماشًا مشدودًا. ثم أضواء حمراء تدور على الجدران الإسمنتية، وتقطع الضوء الأبيض البارد إلى شرائح. وتوقفت الأحزمة الناقلة دفعة واحدة، وارتفعت من القاعة صيحات عمّال مرتبكين.

قفز عاطف إلى الباب، ويده اليسرى على حزامه.

وجاء من المصعد، من عمق أربعين مترًا فوقهم، صوت معدني ثقيل: صرير سلاسل تتحرك.

— شريف — قال عاطف بصوتٍ مخنوق — على البوابة.

الفصل الثاني والعشرون

فرن الطوب القديم

◉ القاعة الرئيسية للمصنع

الأربعاء ١٨ نوفمبر · ٢:٢٥ · صباحًا

انقلب العالم إلى أحمر. الأضواء الدوارة ترسم على الجدران الإسمنتية أقواسًا من دمٍ متحرك، والصفارة تدوّي في القاعة كأن ألف طفل يصرخون في أنبوب واحد، وبين خطوط الإنتاج المتوقفة يندفع العمّال بأقنعتهم البيضاء، رجالًا ونساءً، يصطدمون ببعضهم، ويتعثرون في الأشرطة، ويرفعون أيديهم أمام وجوههم

كمن يتّقي ضربةً لا يعرف من أي جهة ستأتي. على الأرض بقع من مسحوق أبيض ناعم، تلتصق بالأحذية وتتطاير في الهواء كثلج متقطع.

خرج يوسف من المكتب الزجاجي على الدرج الحديدي، وماهر وليلى خلفه، وجلال الراوي بعدهم يمشي ببطء من يعرف أن الاستعجال لن يغيّر شيئًا. أما عاطف فكان قد سبقهم إلى المنصة المعدنية العالية فوق الخط الرئيسي، وصوّب مسدسه نحو بوابة الشحن في عمق القاعة.

وانفتحت البوابة.

ضوء مصابيح قوية أغرق القاعة، وتحته ظلال ثمانية رجال بسترات سوداء ينزلون بسرعة المنحدر الحديدي، وبين أيديهم بنادق قصيرة، وخلفهم رجل أضخم من كل ما حوله، بعنق أعرض من رأسه. سلطان. وفي مؤخرتهم، يتمهّل، بمعطفٍ أبيض مُنشّى كأنه خارج من عيادة، الدكتور شريف الصباغ.

◉ المنصة المعدنية

الأربعاء ١٨ نوفمبر · ٠٢:٣٠ صباحًا

رفع الدكتور شريف يده، فتوقف رجاله. وتوقفت الصفارة، أو خُيّل للجميع أنها توقفت، حين مدّ إصبعه

إلى جهاز صغير في جيبه. وخيّم صمت خشن، لا يقطعه إلا لهاث العمّال المذعورين.

— مساء الخير — قال بصوته الرخيم، وكأنه يفتتح محاضرة — آسف على الإزعاج. اللي عايز يمشي، يمشي. اللي عايز يفضل، يفضل. أنا مش جاي لحد منكم.

تحرك بين الخطوط ببطء، يلمس بإصبعه المنتصب أحزمة الإنتاج وكأنه يتفقد ملكه. وكانت الأضواء الحمراء تمرّ على وجهه وتتركه، فيبدو للحظة وجهًا من شمع وللحظة وجهًا من لحم.

– جلال الراوي – قال وهو يرفع رأسه إلى المنصة – كنت متأكد إن في حد بيلعب جوّه بيتي. بس ما توقعتش إنه حد مات.

ابتسم جلال الراوي ابتسامة هادئة، ولم يردّ.

– ولا أنا توقعت – أضاف الدكتور شريف، والتفت – إن اللي هيدلّني على المكان، ست حلوة زي ليلى.

تجمّد الهواء.

نظر يوسف إلى ليلى.

كانت واقفة على السلم، يدها على الدرابزين، ووجهها قد فقد كل لون. لم تنظر إليه. كانت عيناها على الأرض، على البقع البيضاء التي تغطي الحذاء.

— بعتتلي الكيلو ٥٨ الساعة ستة — قال الدكتور شريف بلطف، كمن يُسلّم شكرًا — من الرقم الأول. اللي بعتلهولي «بالاتفاق». كنت منبهر والله. شغل نضيف.

— ليلى؟ — قال يوسف، وكان الصوت الذي خرج منه غريبًا عنه — دي حقيقة؟

— يوسف...

– أيوه ولا لأ؟

– أيوه. – همست – المشرف قالّي. قالّي إنه عايز شريف ييجي. وإن العميد هيكون وراه. وإنك لو عرفت، هتتغير، وهتبوظ كل حاجة.

نظر إليها كما لم ينظر إلى أحد في حياته: لا غضبًا ولا ألمًا، بل بارد، واضح، كزجاجٍ قرأه مئة مرة.

– قلتيلي كل حاجة الصبح – قال بصوتٍ خافت – وجيتي معايا. وماقلتيش دي.

– كنت هقولك!

– لما كان شريف يبقى على البوابة؟

لم تجد ما تردّ به. ورأى يوسف، وهي تقف على الدرجة الحديدية الباردة، على يدها الارتعاش الذي لا يمكن أن يكون مصطنعًا، والدمعة التي لم تعرف أن تسقط.

ولم يكن يستطيع أن يكرهها. وكان هذا أسوأ ما في الأمر.

◉ الممر الخلفي — بوابة الصيانة
الأربعاء ١٨ نوفمبر · ٢:٤٥ · صباحًا

أطلق أول رصاصة من فوق المنصة عاطف، بيده اليسرى، من مسافة ثلاثين مترًا؛ فسقط أحد رجال سلطان على الأرض وانفجرت القاعة كلها صراخًا. وردّ

الرجال بوابلٍ من الرصاص يرقص على المعدن، ويلتقط الشرر من الحديد، ويُنبت في الجدران الإسمنتية ثقوبًا سوداء صغيرة.

— لازم نطلّع العمّال! — صاح يوسف — مئة وأربعين واحد! ده مش ذنبهم!

— مفيش خروج غير المصعد — قال جلال بهدوء، وهو يسحب ليلى من ذراعها بعيدًا عن الدرابزين — وهو عندهم.

— في خروج تاني.

— مفيش.

— في.

أغمض يوسف عينيه، لا ليهرب، بل ليقرأ.

قرأ الهواء. وكان الهواء، في كل مكان، حارًّا وثقيلًا بمسحوق أبيض، إلا عند الجدار الشرقي، خلف خط التعبئة الأخير، حيث يتحرك تيارٌ رقيق باردٌ، يحمل رائحة طين وأتربة قديمة وصدأ، تيارٌ يصعد من مكانٍ بعيد. قرأ الجدار: كتلة من الطوب الأحمر القديم، تختلف في لونها عن إسمنت القاعة، بُنيت قبل المصنع بخمسين سنة. قرأ سقفها: قبو منحنٍ يشبه حنية فرن. فرن طوب قديم.

— فرن الطوب القديم! — قال، وعيناه تُفتحان — المصنع اتبنى جوا فرن مهجور. وفي ممر خدمة. هناك.

أشار بذراعه نحو الجدار الشرقي، وصاح بالعمّال، بصوتٍ لم يعرفه في نفسه:

— اللي يسمعني يجري ورايا! الجدار الشرقي! دلوقتي!

لم يتحركوا في البداية. ثم رأى امرأة عجوزًا بقناع أبيض تحمل طفلًا في ذراعيها، لا بد أنه ابنها الصغير الذي لا تجد من يتركه معه، تنظر إلى وجهه، وتتبعه. وتبعها آخر، ثم ثالث، ثم مئات الأقدام تدق الأرض الإسمنتية في سيل بشري يتدفق نحو الجدار.

◉ ممر الخدمة القديم

كان الجدار الطوبي يخبئ باب فرن حديديًا صدئًا، مضغوطًا في إطاره منذ عقود. ضرب ماهر الدرديري مقبضه بعقب مسدسه مرتين، ثم ثلاثًا، حتى انفلت، وانفتح الباب على ممر ضيق منحنٍ، مظلم، رائحته طين وغبار ورطوبة قرون.

اندفع العمّال إليه واحدًا بعد آخر. ورأى يوسف في ضوء مصباح ماهر الصغير الحوائط المنحنية المحروقة بسواد قديم، والأرض المغطاة بطبقة من رماد حجري، وعلى بُعد خطوات صدأ قضبان صغيرة كانت تحمل عربات الطوب منذ ستين سنة.

وصاح عاطف من المنصة:

— اطلعوا! أنا هغطّي!

كان يتحرك من خلف مدفعٍ حديدي إلى آخر، يطلق بيده اليسرى طلقاتٍ قصيرة دقيقة، لا يُضيّع واحدة منها. رجل لم يفرح بشيء في حياته غير أن يُطاع، يصنع في هذه اللحظة شيئًا لم يطلبه منه أحد. ثم رأى يوسف رأسه ينحني فجأة، ويده اليسرى تتوقف في الهواء، وبقعة داكنة تتسع على صدره بسرعة، وجسده يميل ببطء ويسقط على الدرابزين.

وأطلق الدكتور شريف الصباغ، بهدوء من لا يستعجل شيئًا، رصاصة ثانية على الجثة.

— فتحوا البوابة — قال بصوتٍ لا ينبض — وولّعوا المكان.

◉ عند باب الفرن

الأربعاء ١٨ نوفمبر · ٠٣:١٠ صباحًا

كان جلال الراوي واقفًا على عتبة الممر، آخر من لم يدخل. نظر إلى الخلف: إلى القاعة التي تتحول إلى جحيم، إلى الشرر والدخان والنار التي بدأت تمتد على الأحزمة، إلى جثة عاطف المعلقة على الدرابزين.

ثم التفت إلى يوسف، وأخرج من جيبه شيئًا صغيرًا أسود: الذاكرة الرقمية نفسها التي تركها الدرديري في الخزنة.

– دي حقيقية. – قال، ومدّ يده بها – الوحيدة اللي في الدنيا. فيها شغل ثلاث سنين، وأسامي، وتحويلات. مش مزوّرة. أنا ما كذبتش عليك في كل حاجة.

أخذها يوسف. وكانت أخف مما يتخيل.

– تعالى معانا.

– لأ. – ابتسم – لازم حد يقفل الباب من ورا. وإلا هيدخلوا وراكم.

– جلال!

— ماهر. — قال، والتفت إلى تلميذه — لا تبكي عليّ تاني. بكيت بما يكفي. — ثم نظر إلى ليلى — دينا في أمان. أنا قلتلك. وإنتِ مش مدينة لي بحاجة.

ووضع يده على الباب الحديدي الثقيل، وعيناه إلى يوسف، يتأمله كمن يودّع ابنًا:

— متتغيرش.

وأغلق الباب.

ارتفع صوت المزلاج من الداخل، معدنيًّا نهائيًّا، وتبعته طلقات متتالية من وراء الجدار، ثم صرخة، ثم صمت.

◉ صحراء الواحات — فوق المصنع

الأربعاء ١٨ نوفمبر · ٠٣:٣٠ صباحًا

خرج الناس من فم الفرن القديم على سفح تلّ رملي، أول الخارجين رجالًا ونساءً بأقنعة بيضاء ممزقة، يلتقطون الهواء كغرقى، وفي أذرع بعضهم أطفال، وبين أيديهم جميعًا ورقة بيضاء من الغبار تلتصق بالجلد.

كان الفجر على الأفق خطًّا رماديًا باردًا، والنجوم تنطفئ واحدة بعد أخرى، والريح تحمل رائحة دخان بعيد. ووقف يوسف، يعدّ بعينيه العمّال الخارجين: مئة وثلاثة وثلاثون، مئة وأربعون، ثم فتاة صغيرة تتعثر.

ثم، فجأة، اهتزّ الرمل تحت أقدامهم.

خرج من ثقوب مصنع الطوب المهجور، في اللحظة نفسها، ثلاثة أعمدة من اللهب، ترتفع نحو السماء الرمادية كأصابع عملاقة، وتبعها صوت انفجار مكتوم، عميق، دفعهم جميعًا إلى الأرض. ثم تحوّل البرج الصدئ كله إلى شعلة، وتفتّتت الأرض حوله، وغرق مصنع الموت الذي بُني تحت الأرض في نارٍ تصعد من كل جانب.

«ماس كهربائي» — قال ماهر الدرديري بصوتٍ مبحوح، وهو يمسح الرماد عن وجهه، وكان هذه المرة يبكي ويضحك معًا.

ونظر يوسف إلى الخلف، إلى ليلى، الواقفة بعيدًا عن الجميع على كثيب رملي، ينعكس على وجهها لهيب المصنع الذي يحترق، وعلى كتفيها ثوب الرماد، وعيناها عليه.

لم يقل شيئًا. ولم تقل.

ومن بعيد، على الأسفلت، ارتفعت أنوار زرقاء وحمراء تقترب مسرعة: العميد وجدي ورجاله، متأخرين، ومعهم، وهذا ما لم يتوقعه أحد، سيارة سوداء واحدة في المقدمة، يقودها رجل أنيق الهيئة، هادئ الابتسامة: النقيب هشام الشرقاوي.

الفصل الثالث والعشرون

قراءة الرماد

◉ صحراء الواحات — فوق المصنع المحترق

الأربعاء ١٨ نوفمبر · ٠٤:٠٥ فجرًا

كان الفجر يحاول أن يولد وسط الدخان. خط برتقالي هزيل يمتد على حافة الأفق، تحته سماء بلون الرماد، وفوقه نجوم أخيرة تذوب، وبينهما عمود أسود ثقيل يرتفع من الأرض كشجرة ضخمة بلا فروع. وتهبط من العمود، ببطء حالم، رقائق رمادية ناعمة، تلتصق بالرمل وبالشعر وبالأكتاف كثلجٍ خاطئ، وتفوح

في الهواء رائحة بلاستيك محترق وكيماويات وحديد ساخن وشيء أخفّ، حلو، مقبض، رائحة لحمٍ لا يريد أحد أن يسميه.

جلس العمّال في دوائر صغيرة على الرمل، متلاصقين كطيور غرقى، وتحرك بينهم رجال العميد وجدي بالبطاطين والماء. وكانت المرأة العجوز ذات القناع الممزق تهدهد الطفل الصغير، وتنظر بعينين فارغتين إلى النار.

وتوقفت سيارة سوداء عند حافة الطريق الترابي، وفتح بابها رجل أنيق، يمشي بخطًى هادئة ويداه ظاهرتان.

— ماتتحركش! — صاح ماهر الدرديري.

كان قد رفع مسدسه، وارتجف ذراعه بوهن من حمل ثقيل. ووقف النقيب هشام الشرقاوي على بعد عشر خطوات، ورفع كفّيه ببطء، كمن اعتاد على أن تُصوَّب إليه الأسلحة.

— أنا مش جاي أقاتل يا أستاذ ماهر.

— إنت راجل شريف!

— كنت.

قال ذلك ببساطة غريبة، وعيناه على يوسف، لا على المسدس.

تقدم يوسف خطوة. وقرأ الرجل، كما يُقرأ كتابٌ قبل أن يكلّمك. رأى أصابعه: على السبابة والإبهام بقع حبر أسود فاحم، بلمعة زرقاء خافتة، لم تغسلها المياه. ورأى كُمّه الأيسر: رماد تبغ تركي قديم، ليس من السنة، بل من ثلاثة أيام متواصلة جلس فيها على كرسي واحد، بجوار سرير. ورأى حذاءه: طين أحمر، وكسور خزف رقيقة من مستشفى القصر العيني. وفي جيبه الداخلي، مطويةً بعناية، بطاقة بيضاء أنيقة، نسخة ثانية من التي ترك على طاولة المستشفى.

— ليلة الانفجار — قال يوسف — إنت اللي نقلتني المستشفى.

— أنا.

— وقعدت جنبي.

— كنا بنتبادل. — قال الشرقاوي — ماهر بالليل، وأنا بالنهار.

التفت ماهر إليه بدهشة، ولم ينزل المسدس.

— إنت... إنتوا؟

— جلال أمرني. — ابتسم هشام ابتسامة متعبة — من أربعتاشر شهر. دخلت عند شريف واحد من رجاله، باسم ضابط فاسد: ه. ش. في الدفتر. وهو كان بيدفعلي من الجيب ويصدّقني. وأنا كنت بكتب

كل ليلة تقرير على ورق بحبر معين وأحطه في صندوق بريد وهمي.

— والمحضر؟ «ماس كهربائي»؟

— كان لازم يتحفظ. لو اتفتح ملف جنائي رسمي، كانوا هيقتلوا الأستاذ يوسف قبل ما يصحى. فكتبت اللي يخليهم يطمّنوا.

— وفي رصيف سبعة؟ — قال يوسف — «الجمعة عدّت وإنت لسه عايش. تفتكر ليه؟»

— لأني أنا اللي كنت مؤجّل أمر الإعدام. — ابتسم ابتسامة لم يعرف يوسف أهي مُرّة أم حانية — كل

ليلة كنت بقول للدكتور شريف: «لسه ما لقيناش فرصة نضيفة». ونهى — توقف، وأخفض عينيه — نهى ما اقدرتش أنقذها. عاطف كان بياخد أوامره من جلال مباشرة. ومن ساعتها وأنا ما بنامش.

أنزل ماهر المسدس ببطء. وأمسكه بيده المرتجفة كأنه لم يعد يعرف ما يفعل به.

◉ حافة المصنع المحترق

الأربعاء ١٨ نوفمبر · ٥:٣٠ صباحًا

اقترب يوسف من حافة الحفرة السوداء حيث كان المصنع، وعلى ظهره حرارة الفجر وعلى وجهه حرارة الأرض. لم يكن هناك ما يُرى إلا عمود الدخان وبقايا

البرج المنهار والطوب المنثور، وتحته، في الحفرة، جحيم بطيء يفور.

وقف سلمى فاروق بجانبه، تحمل دفترًا صغيرًا، وفي عينيها ما لا يُقال.

— مفيش دليل — قالت بصوتٍ مبحوح — اتحرق كل حاجة. الدفاتر، الأوراق، المخازن. مفيش حاجة هتقدر النيابة تمسكها.

— فيه.

نظرت إليه.

— الرماد يحكي يا أستاذة سلمى — قال يوسف — لو عرفتي تقرأه.

جثا على ركبتيه على حافة الحفرة، ووضع كفّه المفتوحة على الرمل الدافئ، وأغمض عينيه.

وقرأ.

قرأ الطبقة الأولى، الجوهر: رماد قرابة ثلاثمئة طن من الأقراص، سكّر ونشا وسليولوز وخليط ثانٍ من مواد لا يعرفها الصيادلة، وفيها بقايا خطرة لا تكتبها الأدوية. وقرأ الميلاد: ماكينات من خمس دول، مُهرّبة من موانئ أربعة بين ٢٠٢٣ و٢٠٢٥، وأسماء المرفأ الذي مرّت منه كل ماكينة محفورة في رماد حديدها المتفحّم. وقرأ

الأيدي: مئات الأصابع عملت على هذه الأحزمة، وفي الرماد بقايا قفازات زرقاء بنوعٍ واحد اشتراه موزّع واحد من مصنع بالعاشر من رمضان. وقرأ الرحلة: ثلاثة محاور حريق انطلقت في الثانية وثمانٍ وخمسين دقيقة، عند الأحزمة الشرقية، وعند خزانات المادة الحام، وعند مدخل المصعد، بسوائل مُسرّعة اشتراها رجل أعسر لم يكن عاطف؛ كان رجلًا آخر، رجل ثقيل العنق، من محل بالسلام، بإيصال باسم شركة «النيل للأمن والحراسة». وقرأ الأثر: ما سيبقى بعد هذا كله، في رئات العمّال، وفي كبد من مات من هذه الأقراص، وفي كلى امرأة ماتت قبل عامين.

وفتح عينيه، وفي صدره ثقل ثقيل.

إفادة شاهد فني — بلاغ حريق المصنع، الكيلو ٥٨

بدء الحريق: ٠٢:٥٨ فجرًا، في ثلاثة محاور متزامنة

المسرّع: مواد حارقة، مشتراة بإيصال شركة «النيل للأمن والحراسة»

المنفّذ: رجل ثقيل العنق، عمل بإمرة سلطان

الماكينات: خمس جهات توريد، موانئها مدوّنة في ملحق

الشاهد: يوسف سالم — مهندس مواد

كتبت سلمى فاروق بيدٍ ترتجف، ثم رفعت عينيها إليه:

— ده يتقبل في المحكمة يا أستاذ يوسف؟ إن حد يقول إنه قرأ الرماد؟

— مش هقول قريته — قال — هقول فحصته. هجيب نفس الرماد، وأفحصه في معمل. هتبقى الأرقام نفسها. بس أنا أعرف الرقم اللي أدوّر عليه قبل ما أبدأ.

ابتسمت سلمى، لأول مرة منذ عرفها.

— ده أنزه شاهد قابلته في حياتي.

◉ تلّ رملي بعيد

كانت ليلى تجلس على الرمل وحدها، وركبتاها إلى صدرها، تنظر إلى الشرق حيث تذوب الحدود بين الليل والنهار. وقد تساقط الرماد على شعرها، فصار كأنها تلبس تاجًا رماديًا باهتًا.

جلس يوسف بجانبها، على مسافة ذراع. لم يقل شيئًا لدقائق. كانت الشمس قد بدأت تلقي على الرمل أول خطوطها الذهبية، فتحوّل الأرض كلها إلى بحر من النحاس.

— أنا هتكلم — قالت أخيرًا — وانت اسمع.

– اتكلمي.

– أنا ما كنتش عايزة أخونك. – صوتها هادئ هدوء من استنفد دموعه – وكل مرة كنت بقول لنفسي: دي آخر مرة. وكل مرة كان فيه حاجة جديدة. «جيبيه». «قوليله إن». «ما تقوليش». وكل مرة كنت بقول: دينا.

– عارف.

– وكل مرة كنت بقرّب منك أكتر. ولما قلتلي إنك قريت تليفوني... – ابتسمت بوهن – حسّيت لأول مرة إن فيه حد يستاهل إني أقوله كل حاجة. وما قدرتش. كنت لسه خايفة.

نظر إليها. وكان وجهها، في ضوء الفجر الأول، بلا قناع. وجه فتاة في الثامنة والعشرين، تعبانة، لا تُشبه المرأة الكاملة التي قابلها أمام شريط أصفر في العباسية، ولا تُشبه أي صورة.

— ما قدرتش أصدّقك — قال بصوتٍ هادئ — مش عشان كدبتي. أنا كدبت على العميد. أنا كدبت عليكي. إحنا الاتنين كدبنا. — توقف — عشان في كل مرة، إنتي بتختاري بدالي. من غير ما تقوليلي.

— عارفة.

— وأنا مش قادر أبقى مع حد يختار بدالي. حتى لو كان يحبني. حتى لو كان بيعمل ده عشان أخته. —

ابتسم ابتسامة مكسورة — وحتى لو كنت أنا كمان بحبه.

أغمضت عينيها. ولم تبكِ.

— هتتحاسبي — أضاف — لأن الحقيقة لازم تتقال كلها. وأنا هقولها. هقول إنك كنتي مجبرة، وإنك جيتيلي بالرسالة الأولى، وإنك قلتيلي الحقيقة وقت ما قدرتي. بس لازم تتقال.

— عارفة. — فتحت عينيها — وأنا هسلّم نفسي.

— ليلى...

— مش عشانك. — قالت بهدوء — عشان أنا تعبت. وعشان دينا هتكبر وهتسألني إيه اللي حصل. ومش عايزاها تلاقيني هربانة.

ثم مدّت يدها إلى جيب معطفها، وأخرجت شيئًا صغيرًا: قلم حبر جاف أسود، رخيصًا في ظاهره.

— ده من المشرف. — وضعته في كفه — مش عايزة أحتفظ بحاجة منه.

قرأه يوسف بعينيه. وكان فيه حبر ما زال يحمل، تحت الأسود الفاحم، شيئًا آخر: حرارة يدها وهي تكتب الاسم الذي لم تنطق به.

– وكل ما أكتب بيه بعد كده – قال – هفتكر إن فيه حاجات بتتقال من غير صوت.

ابتسمت ابتسامة هي أجمل ما رآه منها، لأنها كانت أول ابتسامة بلا كذب، وبلا خوف، وبلا فائدة.

ثم وقفت، ونفضت الرماد عن معطفها، ومشت، بخطًى هادئة، إلى العميد وجدي الواقف بعيدًا عند السيارات.

ولم تلتفت. ولم يطلب منها.

◉ سيارة العميد وجدي

جاء ماهر الدرديري إلى يوسف وهو واقف بجانب السيارة، وفي يده هاتف مضيء. كان وجهه قد استعاد شيئًا من لونه، وفي عينيه أثر ذلك الرجل الذي رأى أستاذه وهو يموت للمرة الثانية.

— هشام بيقول إن شريف هرب. — قال — خرج من البوابة التانية قبل ما المصنع يولّع، ومعاه سلطان واتنين. وطلعوا على طريق الواحات متجهين شمالًا.

— فين رايح؟

– عنده طيارة خاصة في مهبط صغير قرب الفيوم. بتقلع الساعة سبعة وربع.

نظر يوسف إلى الساعة: السادسة والنصف. ثم نظر إلى الأفق، حيث كانت الشمس قد خرجت كاملة، تلقي على الرمل المتفحم لونًا ذهبيًا مكسورًا.

– قدامنا خمسين دقيقة.

– مش كفاية.

– كفاية – قال يوسف – لو عرفت أقرأ الطريق.

الفصل الرابع والعشرون

أنا لست المحكمة

◉ طريق الواحات — الكيلو ٥٨

الأربعاء ١٨ نوفمبر · ٠٦:٣٥ صباحًا

قفز الأربعة إلى السيارة السوداء قبل أن يكتمل الأمر: النقيب هشام في مقعد القيادة، وماهر الدرديري إلى جواره، ويوسف في الخلف يشدّ حزام الأمان بيدين لا تعرفان الارتجاف. وخلفهم ثلاث سيارات للعميد وجدي، تحمل رجالًا لم ينم أحد منهم منذ ثلاثين ساعة، لكنهم ركبوا كما يركب من وجد لتعبه أخيرًا غاية.

انطلقت السيارة بصوت محركها، وتطايرت وراءها ستارة من غبار ذهبي، وتركوا خلفهم المصنع الذي لا يزال يسيل دخانه الأسود نحو السماء، والعمّال الجالسين على الرمل، وامرأة تقف بجانب العميد وجدي لا تلتفت.

— إنت بتسوق كده كل يوم؟ — سأل ماهر وعيناه على عدّاد السرعة.

— آخر مرة سقت كده من تسعتاشر سنة — قال النقيب هشام ببرودة — وماكنتش سعيد بالنتيجة.

كان الطريق في ذلك الفجر شريطًا رماديًا يتلألأ تحت ضوء وردي رقيق، تحفّه كثبان صفراء منخفضة كأنها موجٌ تجمّد في منتصف حركته. وعلى جانبيه تمرّ أعمدة الكهرباء كأسنان مشط عملاق، وفي الأفق سراب ماء يرتجف على الأسفلت. وهبّت شاحنة محمّلة بالبرتقال من الاتجاه المعاكس، وخلفها شاحنة أسمنت، وفي الهواء رائحة بنزين وغبار وبرتقال.

وعند الكيلو ٩٠ انقسم الطريق إلى فرعين: يمين نحو الجيزة، ويسار نحو الفيوم.

— أي واحد؟ — قال هشام وهو يخفف السرعة.

أغمض يوسف عينيه.

لم يكن في الدنيا أثر سيارة واحدة على الأسفلت ظاهرًا لعين أخرى. لكن لعينه، كان الأسفلت كتابًا مكتوبًا بالحرارة: كل إطار يمرّ يترك في الإسفلت دفئًا يبقى دقائق بعد رحيله، وكل سيارة ثقيلة تترك عمقًا في هذا الدفء بقدر وزنها. رأى على الفرع الأيمن أثر شاحنات متفرقة، باردة الآن. ورأى على الفرع الأيسر ثلاثة أخاديد دافئة، قريبة العهد، لأربع عجلات ثقيلة؛ سيارات دفع رباعي، تسير بسرعة غير عادية، منذ أربعين دقيقة تقريبًا.

— الشمال — قال — ساعة إلا ربع قدامنا.

– ساعة؟! – قال ماهر – الطيارة هتقلع الساعة سبعة وربع.

– هنوصل سبعة وعشر.

– ازاي؟

– الخطّ ده مش الطريق الرئيسي. – فتح عينيه – في طريق ترابي بين النخيل، هيوصلنا من الجنب. الإطارات اللي قدامنا لفّت عليه وبعدين رجعت. هما ما يعرفوش إن العميد وجدي وراهم.

نظر النقيب هشام إليه في المرآة، نظرة امتزج فيها الإعجاب بالخوف، ثم وجّه السيارة إلى اليسار.

◉ مهبط خاص صغير — قرب الفيوم
الأربعاء ١٨ نوفمبر ٠٧:١٠٠ صباحًا

بين بساتين النخيل وحقول الذرة المقطوفة، يمتد شريط أسمنتي قصير، مغبر، يلمع في الشمس المائلة كجلد ثعبان نائم. وفي أحد طرفيه حظيرة من الصاج المتآكل مطلية بالأزرق الباهت، وفي الآخر مخروط برتقالي ممزق ينتفخ بريح هادئة، وعلى الأرض كلاب ضالة تتمدد في ظل الجناح، لا تأبه لأحد. ورائحة الوقود الثقيلة تصعد في الهواء الساخن كسراب.

وعلى الشريط الإسمنتي، بجانب الحظيرة، طائرة بيضاء أنيقة، جسمها كالبجعة، تدور في جناحها الأيسر

عنفة بصوت يعلو شيئًا فشيئًا. وعند سلّمها القصير ثلاث سيارات سوداء مركونة بلا نظام.

وتحرّكت السيارة السوداء للنقيب هشام من وراء صفّ النخيل بسرعة مخيفة، وأوقفت فرامل طويلة غبارًا كثيفًا حيث لا يراها أحد.

— مش هيقدروا يهربوا! — صاح هشام وهو ينطّ من مقعده، مسدسه في يده — ماهر! اتصل بالباشا، قوله يطلّع الرجالة من الجنب!

كان على السلّم رجل بمعطف أبيض يصعد ببطء مهيب كأنه يصعد إلى منصة تكريم: الدكتور شريف الصباغ. وبجانبه، بعنقه الأعرض من رأسه، سلطان،

يلتفت بعينين مدرّبتين. رآهم أولًا. صرخ بشيء، وانفجرت في الهواء الساخن أول رصاصة.

◉ الشريط الإسمنتي

الأربعاء ١٨ نوفمبر · ٠٧:١٢ صباحًا

وتحوّل المهبط الصغير في لحظة إلى مسرح بلا ستار.

أطلق رجال سلطان من وراء السيارات، وتناثر الزجاج، وخرّت إحدى الإطارات بصوت ريح مخنوق. وردّ هشام الشرقاوي من خلف سيارته، بيدٍ ثابتة لم تتعلم في تسع عشرة سنة إلا شيئًا واحدًا. وأعقبته سيارات العميد وجدي، تقتحم الحقل من الجنب بين النخيل، وتنفجر منها أبواب وصيحات.

لم يشارك يوسف في إطلاق النار. كان قد ركض.

ركض على الشريط الإسمنتي، وحذاؤه يدقّ الأرض الساخنة، وعيناه على الطائرة التي بدأت تتحرك ببطء، تقترب من منتصف المدرج، وتدير مقدمتها نحو الريح.

ومن بعيد، في أثناء ركضه، قرأها.

قرأها كما يُقرأ كتاب لا ينتظر قارئًا. الجوهر: ألومنيوم وتيتانيوم وكربون، صُنعت في مصنع بمدينة في أمريكا قبل ثلاث عشرة سنة. الميلاد: أربعة ملّاك، آخرهم رجل لم يملكها بقدر ما استأجرها. الأيدي: ستة طيارين، وعشرات الفنيين. الرحلة: ألف وأربعمئة ساعة

طيران، وحادثة واحدة، قبل أربعة عشر شهرًا، حين اصطدم طائر كبير بالمحرك الأيسر.

وفي عمق المحرك الأيسر، في دوّارة لا يراها أحد، شقّ دقيق نحطّ من شعر، تصدّع معدن في ريشة ضاغطة، أصلحه فنّي بثمن رخيص، وكتب شهادة صيانة بخط لم يكن خطه.

والأثر.

وقف يوسف في منتصف الشريط، والطائرة على بُعد مئتي متر، تزداد سرعتها. رأى ما سيحدث بعد ثماني دقائق، على ارتفاع ثمانية آلاف قدم، فوق صحراء بلا شاهد: ريشة تنفصل، وعنفة تنفجر من الداخل، ونار

على الجناح، ومقصورة صغيرة بيضاء تهبط على الرمل بلا ناجين.

«دَعه يقلع».

جاء الصوت دافئًا، هادئًا، لا ينتصر ولا يتوسل، كأنه يقدّم هدية.

«لن تسأل عنك أحدًا. لن تُلطّخ يديك بدم. العدالة ستأتي إليه من فوق، بلا محكمة ولا شاهد ولا ثمن. الأربعون الذين ماتوا يستحقون هذا. وأمك. أمك ماتت ببطء، عشر سنوات، على جهاز يتنفس مكانها. فلماذا لا يموت هو في ثماني دقائق؟»

كانت الطائرة تتحرك. وكان الصوت قريبًا. وكانت ثانية واحدة تفصل بين رجل وآخر.

كان يعرف كل ما يقوله الصوت. ويعرف أنه حق. وهذا ما جعله أشدّ ما سمع في حياته.

ثم تذكّر ما قاله ماهر في المكتب الزجاجي: «اللي بيحسبها كده بيوصل لأي رقم».

وتذكّر ما قالته له أمه في ربيع قبل عامين، وهي تبتسم لوجهه المتعب: «إنت عمرك ما كدبت عليّا».

وتذكّر جلال الراوي على باب الفرن: «متتغيرش».

مدّ يوسف ذراعيه، ووقف في وسط الشريط، أمام الطائرة، وجهه إلى المقدمة البيضاء التي تتّجه إليه بسرعة ثمانين كيلومترًا في الساعة.

— أنا مش المحكمة — قال بصوتٍ مسموع، وللمرة الأولى لم يهمس، بل قاله كمن يعلن شيئًا — وأنا مش الله.

وارتفع صوت الطائرة حتى غطّى على كل شيء. ورأى، من زجاج قمرة القيادة، وجه الطيار يتغيّر، يتّسع بعينين شاحبتين، وتنقبض يده على المقود.

وكان يتساءل، في اللحظة التي لا تكاد تحتمل، إن كان سيُدهس.

فرملت الطائرة في الثانية الأخيرة.

صرخ الإسفلت تحت العجلات صرخة طويلة، وتصاعد دخان أبيض من الإطارات، واهتزّ الجسم كله، ثم توقفت مقدمتها على بُعد ثلاثة أمتار من صدر الرجل الواقف بذراعين مفتوحتين، في ريح حارة تحمل رائحة مطاط محروق ووقود.

وقع صمت غريب، ملأه فحيح العنفة وهي تتباطأ.

كان قد هدأ إطلاق النار. وكان رجال العميد وجدي يرفعون سلطان من الأرض، ينزف من ذراعه،

ويقيّدون رجليه. وكان النقيب هشام الشرقاوي يمشي نحو الطائرة، ومسدسه مُصوَّب إلى باب المقصورة.

انفتح الباب، وانساب منه السلّم، ونزل رجل بمعطف أبيض مُنشّى، ما زال مُنشّى، حتى وسط هذا الغبار. الدكتور شريف الصباغ، ويداه مرفوعتان، وابتسامة صغيرة لم تكن اعتذارًا ولا استسلامًا.

— ليه؟ — قال وهو يقترب من يوسف، بصوته الرخيم الذي لم يرتجف — كنت ماشي. كنت هتخلص مني وإنت نضيف.

— عارف.

– إزاي عرفت؟

– المحرك الشمال. – قال يوسف – ريشة مشروخة من حادثة طير. كانت هتفصل بعد تمنية دقايق.

نظر الدكتور شريف إلى الطائرة، ثم إلى يوسف، ثم إلى الطائرة مرة أخرى. وللحظة، لحظة قصيرة، رأى يوسف على وجهه شيئًا لم يكن في الدنيا قبل ذلك: رجلًا يدرك أنه كاد يموت دون أن يعلم.

– وكنت هتسيبني.

– كنت هسيبك أموت. – قال يوسف بهدوء – ومش هسيبك. الاتنين صح.

— وده معناه إيه؟

— معناه إني ما أستحقش أبقى المحكمة. بس أستحق أقول الحقيقة قدامها.

لم يجب الدكتور شريف. ورفع النقيب هشام الأصفاد في يده، وتقدّم، وقال بصوتٍ قديم لا يعرف الشماتة:

— بأمر النيابة العامة.

وسمع الجميع طقطقة المعدن حول معصميه، وكانت أول ما قطع هدوء الرجل.

جلس يوسف على حاجز أسمنتي، يتأمل الشمس وهي تصعد فوق النخيل، وتصبغ الحقول المقطوفة بلون عسليّ هادئ. وكانت الأنوار الزرقاء تدور على الأرض في صمت، وسلمى فاروق، التي وصلت متأخرة، تكتب مع العميد وجدي. وكان ماهر الدرديري يقف بعيدًا، يدخّن، لأول مرة منذ وقت طويل، سيجارة مشتعلة.

وفي رأسه، همس الصوت.

لم يكن همسًا غاضبًا. ولا حزينًا. بل هادئًا، واضحًا، كصوتِ من يودّع محبوبًا على رصيف قطار:

«لم أخسر. أنا لا أخسر أبدًا. سأعود في كل مرة تفتح فيها عينيك».

أغمض يوسف عينيه، وابتسم.

– عارف – قال بصوتٍ لا يسمعه أحد – وأنا هكون هنا.

خاتمة

العين التي أغلقت، والأذن التي فتحت

◉ محكمة جنايات القاهرة — قاعة ٦

الأحد ١٤ مارس ٢٠٢٧ · ١١:٠٠ صباحًا

قاعة عالية السقف، جدرانها مكسوّة بخشب داكن مصقول تلمع فيه خطوط الضوء الساقطة من نوافذ طويلة مغبرة، ومراوح سقف قديمة تدور ببطء فوق مقاعد خشبية امتلأت عن آخرها. ورائحة القاعة رائحة ورق وشمع تلميع وعرق أيامٍ طويلة، ورائحة أخرى

أخفّ وأقدم: رائحة الأمل حين يُنتظر وراء قضبان. وفي صدر القاعة منصة القضاة، وعلى جدارها ميزان نحاسي، وفي الجهة الأخرى قفص حديدي أسود، وفيه رجل بدلة رمادية، شعره الفضي ما زال مسرّحًا بعناية، وعيناه على السقف.

وقف يوسف سالم في قفص الشهود، ويده اليمنى على المصحف، وبدلته الكحلية الوحيدة مكوية بعناية على جسد ما زال يتعلم كيف يحمل الهدوء.

— أقسم بالله العظيم أن أقول الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة.

— تفضل بالجلوس يا أستاذ يوسف — قال القاضي، المستشار عبد الحكيم، رجل في الستين، أبيض الشعر، يتأمل الوجوه من وراء نظارة سميكة — قدّم لنا تقريرك الفني.

تقدّم يوسف بورقة واحدة، مطبوعة، موقّعة، مختومة. ثلاثون صفحة من الجداول والأرقام والمعادلات، ولكن في آخرها، تحت التوقيع، سطر واحد.

— عينة رقم ٣١٢ من الأقراص المضبوطة — قال بصوتٍ هادئ وثابت — محتوى المادة الفعالة سبعة بالمئة من المعلن. نسبة المواد الغريبة مئة وأربعون

ضعف الحد الأقصى المسموح. رماد المصنع المضبوط يطابق ما يقول التقرير الأول عن الحرق العمد. وفي نهاية كل بند، كتبت السطر الوحيد الذي أعرفه.

— وما هو؟ — قال القاضي.

— «غير مطابقة للمواصفات».

ران صمت عميق. وكان هذا أول سطر كتبه يوسف سالم من هذا النوع في إحدى عشرة سنة، وكان يعرف، وهو يقوله، أنه يرد بكلمة واحدة على كل أقراص الدنيا التي كُتب عنها قبله بغير حق: «مطابقة».

نظر إلى الجمهور، فرأى في الصف الأخير فتاة في الخامسة عشرة، بعينين كبيرتين وشعر مرفوع بدبوس، تمسك بيدها منديلًا. وإلى جانبها، في زيّ المتهمين، بوجه شاحب وخال من كل قناع، ليلى حكيم، تنظر إلى أرض القاعة.

ملخص حكم محكمة الجنايات — القضية رقم ٧١٤ لسنة ٢٠٢٦

بالسجن المؤبد على: شريف الصباغ

بالسجن المؤبد على: سلطان حسّان

بالسجن المشدد عشر سنوات على: تامر فؤاد

ببراءة: ماهر الدرديري، وهشام الشرقاوي (لقيامهما بعمل سري مأذون)

بالحبس سنة مع إيقاف التنفيذ: ليلى حكيم (لتعاونها واعتبارها مجبرة)

وحين نُطق باسمها الأخير، رفعت ليلى رأسها ببطء، ونظرت إليه، من خلال بحر الوجوه والمراوح والخشب والظلال. ولم تبتسم، ولم يبتسم. لكن شيئًا ما مرّ بين النظرتين، نحيط ماء رقيق بين شقّين في صخرة.

◉ مقبرة الإمام الشافعي — القاهرة

الخميس ١٨ مارس ٢٠٢٧ · ٠٤:٣٠ مساءً

مقبرة مفتوحة تحت سماء بيضاء، حيث تتراص الأضرحة الصغيرة كبيوت من حجر على سفح التل، وبين الأضرحة ممرات ترابية ضيقة تمشي فيها عجائز بملابس سوداء ومعهن أكياس خبز وماء ورد، ويتناثر على الجدران خط الخطّاطين القدماء بسطور من آيات صارت مع المطر لونًا واحدًا. وفي الهواء رائحة تراب مبتل وريحان وبخور، وصوت قارئ بعيد يتلو بنبرة حزينة نقية.

أمام شاهد رخامي أبيض، لم تمر عليه الشمس إلا شهورًا، وقف ماهر الدرديري بيدين متشابكتين خلف ظهره. وإلى جواره يوسف.

«جلال عبد الحميد الراوي — كبير مفتشي الصيدلة — ١٩٥٩ - ٢٠٢٦».

— المرة دي عارف إنه جوّه — قال ماهر بصوتٍ غريب — لقوه عند باب الفرن. وإيده على المزلاج. والخاتم في إصبعه.

مدّ يده إلى جيبه، وأخرج شيئًا صغيرًا لامعًا، ووضعه في كف يوسف.

— قال لي إن لو حصله حاجة أديك ده.

كان الخاتم الفضي، ثقيلًا، دافئًا. نظر إليه يوسف، وقرأه بطبقاته الخمس في ثانية واحدة، وعرف أنه لم يعد بريد أن يقرأ شيئًا.

— أنا مش عايزه.

— هو عايزك تاخده.

— ليه؟

— عشان تفتكر — قال ماهر ببساطة — إن اللي بيعمل الصح مش لازم يبقى ملاك.

بقي يوسف يتأمل الخاتم لحظة، ثم وضعه في جيب سترته. ومشيا بين القبور، تحت سماء تزداد شحوبًا، بلا كلام.

◉ شقة يوسف سالم — شبرا

الخميس ١٨ مارس ٢٠٢٧ · ٠٩:٠٠ مساءً

بعد عامين من الإغلاق، وقف يوسف أمام باب الغرفة الأخيرة في الصالة، وكفّه على المقبض.

لم يكن في العالم شيء أثقل من هذا المقبض. نحاس رخيص، تآكل طلاؤه من أصابع واحدة، يعرف جيدًا ما وراءه من غير أن يقرأ.

فتحه.

جاءه أولًا العطر: لافندر قديم وشاش طبي وبقية صابون. ثم الضوء الأصفر الخافت من مصباح الشارع، يتسلل عبر ستارة بيضاء متشققة، ويلقي خطًا على سرير حديدي بملاءة مكوية، وطاولة صغيرة عليها علب أدوية فارغة، وكوب ماء ترك حلقة مصفرّة عند الحافة. على الجدار صورة قديمة لرجل شاب بقبعة مهندس سكك حديدية، وبجانبه امرأة ضاحكة، بين ذراعيهما طفل في الخامسة بأسنان ناقصة.

دخل ببطء.

وكانت عيناه، كعادتها، تقرأ: السرير من حديد صنع في شبرا الخيمة، وعلى حافته أثر راحة ضعيفة اعتادت أن تتشبث بها كل فجر قبل أن تقف. الستارة مغسولة أربعمئة مرة. وفي علب الأدوية آثار تسع أدوية خُلطت عشر سنوات. كل هذا كان مقروءًا. وكان كله يحمل رائحة واحدة: رائحة امرأة أحبّت ابنها حتى آخر نفس.

أغمض يوسف عينيه، وجلس على حافة السرير. ودون أن يقصد، دون أن يبحث، بكى.

وفي لحظة البكاء الأولى، حين لا يُحسّ الإنسان بشيء إلا بما في صدره، سمع.

لم يكن صوتًا يدخل من الأذن، بل كان شيئًا يأتي من الجدران. صوت ضعيف، بعيد، كأنه قادم من وراء بحر، من ماضٍ لم يُمحَ كل ما فيه. صوت امرأة تتكلم بنبرة تعرفها كل خلاياه:

«...أنا ما عاوزش فلوس يا أستاذ. أنا عايزة ابني يعرف.»

تجمّد.

فتح عينيه، ولم يكن في الغرفة أحد.

ثم جاء الصوت الثاني، رجل، رخيم، هادئ، اعتاد ألا يُسأل:

«يا حاجة عفاف، الشكوى دي هتتعبك. الوزارة بتعمل اللازم. اتفضلي المظروف، وخلّي ابنك في حاله. وأنا أوعدك إن الحاجة اللي حصلتلك مش هتتكرر.»

«هتتكرر.»

«الملف اتحفظ من فوق. ما فيش حاجة أقدر أعملها.»

وصمت.

وكان صوت الرجل صوتًا لا يعرفه، ولكنه يعرف نبرته، كما يعرف المرء نبرة سيارة مرّت به ألف مرة دون أن يرى سائقها. صوت من جلس خلف مكتب طويلًا، وسمّى القسوة «إجراءات».

أطبق يوسف يده على فمه. فقد فهم، في الغرفة الصغيرة بالأضواء الباهتة، ما لم يفهمه في حياته: أن ما أصابه تلك الليلة في معمل العباسية لم يكن العين وحدها. العين رأت. لكن شيئًا آخر، أعمق منها، أقدم، فتح معها: أذن. أذن لا تسمع الهواء، بل تسمع ما قيل في هذا الهواء قبل سنين، ما ترك أثرًا على الجدران كما يترك الحريق سخامه.

أذن تسمع الزمن.

◉ الغرفة نفسها

الخميس ١٨ مارس ٢٠٢٧ · ١٠:٠٠ مساءً

جلس يوسف طويلًا على حافة سرير أمه، يستمع.

كان كل شيء في الغرفة يتكلم: ذلك الجدار سمع ضحكتها حين كانت شابة، وهذا الباب سمع خطواتها الأخيرة، وهذا السرير سمع، آلاف المرات، همسها في الظلام: «اللهم اغفر لمن ظلمني». لكنه لم يعد يريد أن يسمع ضحكتها ولا همسها، فقد أخذ من الغرفة ما يكفيه. أراد أن يسمع الرجل.

ولكن الصوت كان قد عاد صمتًا. لا بد أن الأذن، كالعين، لها طبقاتها وقواعدها، وأنه ما زال في الطبقة الأولى منها، بالكاد يتعلم أن يقف عندها.

وقف، ومسح وجهه بكفّه، ومشى إلى الطاولة الصغيرة، فأخذ ورقة بيضاء وقلمًا، قلم ليلى الأسود، وكتب سطرًا واحدًا.

«الوزارة. الإدارة المركزية للصيدلة. أرشيف البلاغات — ٢٠١٥».

ثم نظر إلى الورقة ملء عينيه، ثم أغلقهما.

وجاء الصوت، من آخر رأسه، قريبًا ودودًا خافتًا، ككلمة صديق قديم عاد بعد غياب:

«عدتُ. ولقد كنتَ تنتظرني».

فتح يوسف عينيه، وابتسم في الظلام ابتسامة لا تشبه ابتسامته القديمة، ابتسامة رجل لم يعد يرى فقط، ولم يعد يسمع فقط، بل صار يعرف أن في الدنيا حربًا أطول مما ظنّ.

— أيوه — قال — أنا مستنيك.

نهاية الجزء الأول

يتبع...

الجزء الثاني: أذنٌ تسمع الزمن